الفصل الثاني

الأدب في عصري ملوك الطوائف والمرابطين

٤٢٢ -٤٨٤، ٤٨٤ -٥٤٠هـ

الفصل الثاني

عصر ملوك دويلات الطوائف

٤٢٢ -٤٨٤ للهجرة

ان ضعف السلطة المركزية وفساد إدارتها وانحلال أجهزتها التنفيذية من الجيش والمالية وتفاقم الصراع على السلطة في عهد الفتنة دفع الامراء واصحاب السيوف من العرب والبربر والصقالبة على الاستقلال بمناطق نفوذهم، ونشبت بينهم حروب دامية ولاذوا بالجزية لدول النصارى وترفعوا عن المثل السامية وسيطر الاندلسيون على الاجزاء الوسطى مثل قرطبة واشبيلية وبلنسية ومرسية ومرية.. وسيطر البربر على الجزء الجنوبي مثل غرناطة وقرمونة والصقالبة على شرق الاندلس والجزائر الشرقية[1].

أما أهم الدول: هي

١- دولة بني جهور في قرطبة (٤٢٢-٤٦٧هـ).

٢- دولة بني عباد في اشبيلية (٤٢٢-٤٨٤هـ).

٣- مملكة سرقسطة (٤٨٢-٥٠٤) وهي اكبر الدويلات القائمة في عهد ملوك الطوائف واقدمها وكانت تحد ثلاث ممالك نصرانية هي قطلونية ونافار وقشتالة، وعاصمتها سرقسطة، وكانت سداً منيعاً امامهم إلا ان استولى المرابطون عليها سنة ٥٠٤ للهجرة، ولم يتمكنوا الدفاع عنها فسقطت بيد النصارى سنة ٥١٢ للهجرة وملكوا الثغر الاعلى والاقاليم التابعة لها بشكل نهائي.

٤- مملكة طليطلة (٤٢٢-٤٧٨) للهجرة، عاصمة القوط القديمة وهي اول مدينة أندلسية تسقط بيد النصارى ولن تسترد.

---

[1] صورة المجتمع : ٣٩ .

٥- مملكة بلنسية: (٤١٧-٤٨٧ هـ) و سقطت بيد السيد القمبيطور سنة ٤٨٧ ليحررها المرابطون سنة ٤٩٥للهجرة.
٦- مملكة غرناطة ٤٢٢-٤٨٣ وهي المملكة الاولى التي سقطت بيد المرابطين.
٧- مملكة بني الافطس (٤٢٢-٤٨٨هـ) عاصمتها بطليوس وسقطت بيد المرابطين في نهاية مفجعة لبني الافطس.
٨- دولة بني صمادح (٤٢٢-٤٨٣هـ) وعاصمتها المرية.

اضافة الى دويلات اخرى كانت تتبع احدى الدويلات الاخرى ولم يتركوا تأثيراً على الساحة الادبية والسياسية[١].

الحالة الثقافية:

امتازت هذه الحقبة بتقدم فكري وحضاري في مختلف العلوم واصبحت عواصم دول الطوائف تنافس عواصم المشرق الاسلامي عن قدرة وجدارة، لاسيما في مجال الشعر، وان الكتب التي الفت في ذلك القرن كثيرة قياساً بفترات سابقة ولاحقة بما يوازي التقدم الحضاري الذي يرجع الى جهود علماء الاندلس وحكامها في العصور السابقة وبالاخص القرن الرابع للهجرة وبالتحديد ثلاثة حكام هم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) والحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) والمنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢هـ) اضافة الى طبيعة الاندلسيين المحبين للعلم والمعرفة وتشجيع ملوك الطوائف في استقطاب الشعراء والعلماء لرفع مكانة دولهم سياسياً وثقافياً أمام نظرائهم من الملوك الآخرين وقال ابن بسام في حديثه عن اشبيلية عاصمة بني عباد "وصارت مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم وميداناً لفرسان المنثور لاسيما في اول المائة الخامسة من الهجرة حين فرح كل حزب بما لديه "[٢]، وكان الشعر يأتي

---

[١] للتفاصيل عن دويلات ملوك الطوائف ، سياسياً ينظر : كتابنا " صورة المجتمع الاندلس٣٩-٨٨ وكتاب دول ملوك الطوائف : محمد عبد الله عنان .
[٢] الذخيرة ١/٢ : ١١ .

في مقدمة اهتمامات الاندلسيين وروى ياقوت الحموي في حديثه عن مدينة شلب " سمعت مما لا احصي أنه قال: قلّ أن ترى من اهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني الادب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر، قرض من ساعته ما اعترض عليه وأي معنى طلبت منه فيما شئت من المعاني " [1] وكان لمجالس الانس التي تعقد في بلاطات الملوك وقصور الاغنياء والمنتزهات التي تتخللها مناظرات ادبية اثر في دفع الحركة الشعرية والنقدية، وكانت العامة يشاركونهم الاهتمام بالشعر حتى الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، وبرز بينهم من المكفوفين اعلام كبار كالاعمى التطيلي والحصري القيرواني...، وكان الشعر وسيلة للارتزاق والحياة والمال وكان بعضهم لا يمدح بأقل من مئة دينار ذهب[2] وبرز في عهد ملوك الطوائف من الشعراء ابن دراج القسطلي (ت٤٢١هـ) الذي سميّ بمتنبي الاندلس وابن شهيد ابو عامر (ت٤٢٦هـ) صاحب رسالة التوابع والزوابع وابن زيدون (ت٤٦٣ هـ) صاحب الشاعرة ولادة بنت المستكفي وابن عمار (ت٤٧٧ هـ) الذي ادى به طموحه الى شق رأسه الى قسمين وابو عبد الله بن الحداد (ت ٤٨٠ هـ) الذي سطر ابياتاً شعرية عن فتاة مسيحية اسمها نويرة وابن وهبون المرسي (٤٨٤ هـ) الذي مدحه المعتمد بن عباد الف مثقال من ذهب لقاء بيتين من الشعر والشاعر الملك المعتمد بن عباد (٤٨٨هـ) الذي سجل احسن القصائد في السجن عن المجد الزائل وابن اللبانة الداني (٥٠٧هـ) شاعر الوفاء في دولة بني عباد وابن عبدون التجيبي(٥٢٠هـ) صاحب المرثاة المشهورة في مملكة بني الافطس وابن حمديس الصقلي (٥٢٧ هـ) اشهر شعراء الاندلس وصقلية والشاعر الحكيم ابو الصلت الداني (٥٢٩ هـ) اضافة الى شاعر الطبيعية الاول ابن خفاجة (٥٣٣هـ) وبرزوا في عهد ملوك الطوائف وامد الله اعمارهم الى عهد المرابطين، ولم يقتصر الحركة الثقافية على الشعر وامتدت لتشمل العلوم الدينية لاسيما علم القراءات والتفسير والفقه واصول الفقه وعلم

---

[1] معجم البلدان ٣ : ٢٥٧.
[2] المغرب ١ : ٤٠٠ .

الحديث... والعلوم اللسانية وما يتصل بها من الادب والتاريخ اضافة الى العلوم التطبيقية من الطب والفلاحة والحساب والهندسة والجبر[1].

أهم الأغراض الشعرية وأعلامها.

١- **الغزل:**

الغزل أهم موضوع شغل الشعراء في جميع عصورهم لاسيما في الاندلس لما فيها من طبيعة فاتنة وحياة حضرية ناعمة وعمران وحدائق ورياض ومجالس انس ورخاء وخمر وغناء والجواري اضافة الى الحرية التي كانت تتميز بها المرأة الاندلسية، وما تتصف من جمال واناقة ولباقة وحسن الكلام، ويمكن تصنيف المعنى الاصطلاحي للغزل الى: -

- **الغزل:** هو الاستهتار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن برقيق الكلام لإثارة عواطفهن وأحاسيسهن.
- **التشبيب:** ذكر المرأة في مطالع القصائد المدحية وما يضاف اليها من ذكر الرسوم والإطلال وايام اللهو والشباب فيما يمكن تسميته بالاسلوب البدوي.
- **النسيب:** اثر الحب وتبريح الصبابة وما يبثه الشاعر من الشكوى وما يعانيه من الهوى والعذاب وخفقان القلب.

اضافة الى الغزل بالغلمان وما يسمى بالغزل الشاذ وغزل النساء من قبل الشواعر ويمكن تصنيف الغزل في الاندلس إلى: -

أ- الغزل العفيف:

وهو تيار وجد عند الطبقة المحافظة لاسيما في النساء اللائي كانت لهن مكانة سامية في المجتمع او من قبل شعراء كانوا يتصفون بالخلق الرفيع، وقد افرد ابن داود الاصفهاني في كتابه " الزهرة " الباب الثامن لهذا النوع من الغزل تحت عنوان

---

[1] لمعرفة تطور هذه العلوم واعلامها في هذا القرن يرجى مراجعة صورة المجتمع الاندلسي ، ٢٣٩-٢٥٦ .

" من كان ظريفاً فليكن عفيفاً " [1]والف الفقيه ابن حزم الظاهري كتاب " طوق الحمامة في الألفة والألاف " في هذا النوع وافرد له الفصل الاخير من كتابه، ومن ابرز من نظموا فيه ابن حزم وابو جعفر بن الأبار وابن شهيد وجعفر المصحفي واحمد بن فرج الجياني الذي زج به المستنصر في السجن لما رفع أنه هجاه ولم يشفع له تأليفه كتاب " الحدائق " ومن شعره: -

وطائعة الوصال عَففتُ عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاع

بَدتْ في الليل سافرةً فباتَتْ دياجي الليل سافرةَ القناع

وما مِن لحظةٍ إلا وفيها الى فتنِ القلوب بها دواعِ

فملكْت النُّهى جمحات شوقي لأجري في العفافِ على طباعى[2]

يصف جمال صاحبته الخلاب، وانها كانت طوع وصاله وامضى معها ليلة سافرة معتصماً بالعفاف المفطور عليه على الرغم من عنف جمحات عواطفه وغرائزه وفتنة صاحبته، وفي المعنى نفسه يقول ابن الأبار[3].

واطعت سلطان العفاف تكرماً والمرء مجبول على عاداته

وانتقل هذا النوع من الغزل الى اوربا ويتضح ذلك في قصة دون كيشوت لسير فانتس (١٥٤٧ – ١٦١٦م) والقصص الشعرية التي كان شعراء الترابادور يتغنون بها في فرنسا واصبحت من سمات الفارس النبيل الذي يسمى بالانكليزية بجنتلمان ويتداخل هذا الغزل مع الغزل العذري الذي شاع في العصر الاموي في عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع امام المحبوبة والطاعة لها، وأحياناً خداع المحبوبة وذكر الرقباء والوشاة وقيود العادات والتقاليد.

---

[1] الزهرة : ١ : ١١٧-١٢٥ .

[2] القلائد: ٧٩، بغية الملتمس: ١٤٠، المقرب ٢: ٥٦ ، المطرب:٤ ، معجم الادباء ٤ :٢٣٦ .

[3] الذخيرة ١/٢ : ١٤٣

ب- الغزل التقليدي:

فقد اعتمدوا على الاوصاف المادية التقليدية في ذكر احبتهم وكانت الطبيعة الوعاء الذي استمد منه الشعراء تشبيهاتهم، يقول المقري: " أنهم اذا تغزلوا صاغوا من الورود خدوداً ومن النرجس عيوناً ومن الآس اصداغا ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وشزر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رضابا [1]. يقول الشاعر محمد بن البين البطليوس في وصف سرب من النساء[2].

غصبوا الصبح، فقسموه خدوداً واستنهبوا قضب الاراك قدودا

ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقودا

واستودعوا حدق المها أجفانهم فاستبدلوا بهنّ ضراغماً وأسودا

لم يكفهم حمل الأسنة والظبا حتى استعاروا أعيناً ونهودا

وتضافروا بضفائر أبدوا لنا ضوء النهار بليلها معقودا

صاغوا الثغور من الأقاحي بينها ماء الحياة لو اغتدى مورودا

وجاءت معظم ابياتهم الغزلية في مقدمات قصائدهم المدحية التي جرى عليها المشارقة فاهتموا بالاستهلال وحسن التخلص وخلطوا بين الغزل والنسيب والمديح وذكروا اماكن في الجزيرة العربية، وتوزع غزلهم بين وصف محاسن محبوبتهم وبين وصال ولقاء ووداع وفراق، تارة هانئ بحبه وتارة شقي بغيابها ويمثل ابن زيدون خير مثال على هذا النوع من الشعر.

---

[1] النفح ١: ٣٢٣ .
[2] دفاتر اندلسية : ٢٨٦

جـ غزل المجون (اللاهي):

ووتوسعت خريطة هذا النوع من الغزل في حقبة ملوك الطوائف لان عصرهم كان عصر الغناء واللهو والطرب ومجالس الانس، فتحدثوا عن حبهم ومجالسهم وخلواتهم وزياراتهم الليلية بفحش وتهتك، ولم تكن تلك القصائد جميعها صادقة بل كان اكثرها تأتي في باب البراعة الفنية والتباهي والتنوع، واصبحت رياضة ومهارة عقلية وبراعةً في الخيال و هذا ما يؤيده الشاعر ابن حصن الاشبيلي بعد قصيدة فاحشة[1].

لـــم انـــلْ مِـــن كـــل مـــا فهـــتُ بـــه غيـــر التمنـــي

انمـــا الشعـــر فكاهـــا ت وحســـبي حســـن ظنـــي

وكان لانتشار الجواري وتحررهن وما يحملن من سمات جمالية وكثرة الراقصات المشهورات بالصنعة والجمال واللعب ومشاركتهم للرجال في الحانات كساقيات للخمور سبباً في انتشار هذا النوع من الغزل، ويقول ابن خفاجة في وصف أحداهن[2].

واهيـــف قـــام يـــسقي والســـكر يعطـــف قـــدّه

وقـــد ترنـــح غـــصناً واحـــمرت الكـــأس ورده

والهـــب الســـكر خـــدّا اورى بـــه الوجـــدُ زنـــده

فكـــاد يشـــرب نـــفسي وكـــدتُ اشـــربُ خـــده

كما وجد عندهم غلاميات في وصف فتيات في زي الذكور اللاتي انتشرن في تلك الاماكن كقول ابن شهيد[3].

ظبيـــةٌ دون الظِّبـــا قـــدْ قصِّصـــت فاتَـــتْ غيـــداء فـــي شـــكل صـــبي

---

[1] الذخيرة ١/٢ : ١٦٢ .

[2] ديوان ابن خفاجة : ٣٥٤ .

[3] ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ، بطرس البستاني ٣ : ١٧٢ .

د- غزل بالنصرانيات:

وكان من جراء اختلاطهم بالنصارى، ظهور نوع جديد من الغزل هو الغزل بالمسيحيات وذكر الكنائس والقساوسة كما يظهر في قصائد ومقطعات الشاعر أبي عبد الله بن الحداد (٤٨٤ هـ) الذي اكثر النظم في فتاة اسمها جميلة سماها نويرة، وأورد ابن بسام سبعين بيتاً له في تلك الفتاة والكنيسة التي كانت

تعمل فيها كراهبة وقد احبها في صباه وكان حبه من جانب واحد[1] ومن شعره

فـــانّ بـــي للـــروم روميـــة تكـــنس مـــا بـــين الكنيســـات

اهيـــم فيهـــا والهـــوى ضـــلة بـــين صواميـــع وبيعـــات

افصـــح وحـــدى يـــوم فصـــح لهـــم بـــين الاريطـــي والـــدويحات

بموقـــف بـــين يـــدي اســـقف ممســـك مصبـــاح ومنســـاة

وقـــد تلـــوا صـــحف اناجلـــيهم بحســـن الحـــان واصـــوات

ه-الغزل بالغلمان:

وهي ظاهرة شاذة وجدت في المجتمعات القديمة في المدن، يرجع بعضها الى الحرمان الجنسي في المجتمعات الفقيرة الشعبية أما في الاندلس فانها تعود الى ميل اصحابها الى البحث عن الجديد في اللذة نظراً لابتذال المرأة وكثرة الجواري وكان الانحلال الاخلاقي عاملاً رئيساً في تفشي هذه الظاهرة اضافة الى عدم تطبيق الردع والقصاص عليهم وفق الشريعة الاسلامية، فوصفوا حركاتهم وسكناتهم وقوامهم وعذارهم كالنساء، وكان بعضهم يلبسون زي الفتيات ويتجملون بحليهن وتصرفاتهن وعطرهن، والغريب ان هذه القصائد وردت على لسان بعض الشعراء ممن اتسموا بالوقار مثل ابن خفاجة وقد يكون من باب الخيال في اظهار البراعة الفنية بينما ترفع

[1] الذخيرة ٢/١ : ٧٠٥ .

كثيرون عن هذا الغزل ويعد ابن عمار (٤٧٧ هـ) من اكثر الشعراء تناولاً لهذا الموضوع كقوله:

وهويتـــهُ يســقي المـــدامً كأنـــه قمـرٌ يـــدور بكوكـب فـي مجلـس

متـــناوح الحركـات ينـدَى عطفـه كالغصـــن هزتـــه الصَّـــبا بتـــنفس

يســقي بكـأس فـي انامـلَ سوسـن ويـدٌ اخـرى مـن محـاجرَ نـرجس[١]

ويعد الشاعر الرمادي (٤٠٣ هـ) من اكثر الشعراء الذين ارسوا قواعد هذا النوع من الغزل في عهد الامارة وامتد الى العصور الاخرى ومن قوله في غلام نصراني:

قبلتـــــه قـــــدّام قسيســـــه شـــــربت كاســـــات بتقديســـــه

يقـــرع قلبـــي عنـــد ذكـــري لـــه مـــن فـــرط شـــوقي قـــرع ناقوســـهِ[٢]

و- غزل النساء:

وكان في هذا العصر كثيرات من النساء الحرائر والجواري يحسن نظم الشعر وكـان الاباء يعنـون بتثقيف فتيـاتهم بنمـاذج جيـدة مـن الشـعر مـن خـلال مـؤدبيهم، وشـاركهن الرجـال فـي ميـادين النشـاط الاجتمـاعي والثقـافي وتـرجم لهـن اصـحاب التراجم، ونال بعضهن حظاً وافراً من التعليم والغناء والموسيقى، وبرزت بينهن نساء كان لهن دور في حياة الامراء والملوك كاعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد، وولادة بن المستكفي، ابنة الخليفة المستكفي بالله، محبوبة ابن زيدون، ويقال انها كتب على احد عاتقي ثوبها[٣].

انـــا والله اصـــلح للمعـــالي وامشـــي مشـــيتي واتيـــه تيهـــا

وكتب عن الآخر:

---

[١] النفح ٣ : ٣٢٧ ، القصيدة كاملة .
[٢] نفسه ٤ : ٤٠ .
[٣] الذخيرة ١/١ : ٤٢٩ ،النفح ٤ : ٢١١ .

وامكـن عاشـقي مـن صـحن خـدي واعطـــي قبلتـــي مـــن يشـــتهيها

واشتهرت من دانية " العبادية " [١] و " غاية المنى " [٢] جارية المعتصم بن صمادح و أم الكرم بثينة بنت المعتصم بن صمادح امير المرية الذي اعتنى بتأديبها لما رأى من ذكائها وكانت تنظم الشعر والموشحات وأحبت شاباً وانشدت له [٣]:

الا ليـتَ شـعري هـل سـبيل لخلـوةٍ ينـــزَّهُ عنهـــا سَـــمعُ كـــلِّ مراقـــبِ

ويـا عجبـا اشـتاق خلـوة مـن غـدا ومثـواه مـا بـين الحشـا والترائـب[٤]

ابن زيدون (٣٩٤ -٤٦٣هـ)

هو احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي، ولد عام ٣٩٤ للهجرة بضاحية الرصافة المشهورة بحدائقها الغناء وبساتينها الفيحاء في قرطبة، وقضى فيها طفولته وصباه، وكان لها اثر كبير في نمو احساسه المميز في ادراك جمال الطبيعة والتغني بالاوقات السعيدة التي امضاها بين رياضها وبساتينها وبالقرب من جداولها وعلى مسمع زقزقة طيورها وحفيف اشجارها، وقد اصيب وهو في الحادية عشرة من عمره بوفاة والده فكفله جده لامه بتربيته وكان متولياً لاحكام الشرطة والاحتساب، وقضى حياته بين قرطبة واشبيلية وانغمس في الاحداث السياسية، ومدح امراءها بقصائد طويلة، واقترب من مؤسس دويلة ابن جهور في قرطبة وكان يطمح الى منصب كبير، ولم يسعفه الحظ فاتهم بالتأمر على تلك الدولة وزج في السجن سنة ٤٣١ للهجرة وأرسل من هنالك قصائد ورسائل يستعطف ابن جهور، ولما لم يظفر بنيل عفوه هرب من السجن بعد ان مكث فيه خمسمائة يوم او اكثر بقليل، واخذ يتنقل بين قرطبة واشبيلية بعد العفو عنه، واستقر عند المعتضد بن

---

[١] النفح ٤ : ٢٨٣ .
[٢] الذيل والتكملة ٢/٨ : ٤٨٨ .
[٣] المغرب ٢ : ٢٠٢ .
[٤] للمزيد عن شاعرات القرن الخامس للهجرة ينظر : الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه د. مصطفى الشكعة : ١٤١-٢١٥ .

عباد في اشبيلية ومنحه لقب ذي الوزراتين، وقد لقي نجاحاً كبيراً في عمله في سفاراته لاسيما انه كان محباً للهو والمتعة والخمر واللعب، وبعد وفاة المعتضد سنة ٤٦١للهجرة اتصل بابنه المعتمد وكان منذ صغره صديقاً حميماً له، ونظم قصائد كثيرة في مدحه، وتوفي سنة ٤٦٣ للهجرة في طريقه لاخماد فتنة في اشبيلية ودفن باحتفال مهيب.

ومن أهم احداث حياته: حبه لولادة بن المستكفي الذي اوحى اليه بكثير من القصائد الغزلية، وما جرى بينه وبين الوزير ابن عبدوس من هجاء ومنافسة لاشتراكهما في حب ولادة.

أثاره:

له ديوان شعر نشره في مصر كامل الكيلاني وعبد الرحمن خليفة ومن ثم نشر بتحقيق على عبد العظيم وهو يضم بين دفتيه قصائد مدح ورثاء وعتاب وغزل ووصف وله أيضاً مجموعة من الرسائل، اشهرها رسالته الاستعطافية الى ابن جهور عندما كان في السجن وسميت بالرسالة الجدية ورسالته التي يسخرمن ابن عبدوس التي سميت بالرسالة الهزلية اضافة الى مجموعة من الرسائل الاخرى[1].

أهم أغراضه الشعرية.

الغزل: يمثل ثلث ديوانه الشعري، وموزع بين مقدمات القصائد المدحية وقصائد غزلية مقصودة لذاتها، ويتميز بعاطفة قوية تسيل في ابياتها الرقة والموسيقى وحسن النظم ودقة الانسجام لذا سميّ ببحتري الاندلس، وقصائده تصور مراحل حبه من النعيم والشقاء والبعد والغدر والاستنفار والشكوى، وغزله حسي مادي ينظر الى المرأة نظرة حسية عدا قصائد قليلة في الغزل العذري والنسيب في تذكر الأيام الماضية في ربوع الطبيعة الجميلة وتعد نونيته من اروع قصائده وقد باهى

[1] مقدمة ديوانه ، تحقيق : علي عبد العظيم .

الشقندي(٦٢٩للهجرة) بها فقال: " لم يقل مع طولها في النسيب ارق منها " [١] واثيرت حولها الاساطير حتى قيل:" ما حفظها احد إلا مات غريباً " وقيل " إن اذساناً لا يتم له الظفر ما لم يحفظها ولذلك شغف الشعراء بحفظها [٢]وتخميسها وتسديهسا، وتبلغ عدد ابياتها اثنين وخمسين بيتاً ومنها: -

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

إن الزمان الذي ما زال يضحكنا أُنساً بقربكم قد عاد يبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بان نغص، فقال الدهر: آمينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الاسى لولا تأسينا[٣]

القصيدة بالاصل معارضة لقصيدة للبحتري، وتفوق على القصيدة الاصلية، وعد من عيون الشعر العربي، وقد عارضه احمد شوقي في العصر الحديث عندما كان منفياً في اسبانيا بقصيدة مطلعها:

يا نائح الطلح اشباه عوادينا نشجي لواديك أم نأس لوادينا

ولحن مع من قبل المغنين لما تتميز من موسيقى هادئة لحسن استخدام حروف المد وانسجامها مع القافية، وما له وقع منسجم مع ما يتصف به الانسان من آهات وحسرات، اضافة الى حسن استخدام التضادات ولغة الحوار وانتقال الزمان بين الحاضر والماضي والمستقبل.

ومعظم قصائده تختلط بوصف الطبيعة كما في قصيدته[٤].

أني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والافق طلق ووجه الارض قد راقا

---

[١] نفح الطيب : ٢ : ١٩٤ .
[٢] مقدمة ديوانه .
[٣] القصيدة كاملة في ديوانه : ١٤١ .
[٤] ديوانه : ١٢٩ .

وللنسيم اعتلال – في اصائله -بدأ كأنه رق لي، فاعتل إشفاقا

٢- المدح:

بدأ شعراء المديح بالظهور منذ تأسيس الامارة الاموية في عهد عبد الرحمن الداخل لاسيما في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) الذي اعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦للهجرة وكانت قرطبة في عهده عاصمة الحضارة والثقافة وجامعة و مركزا للعلوم والاداب وبلاطه منابر للخطباء والشعراء، أما في عصر امراء الطوائف فان عواصمهم تحولت الى ساحات كبرى للمديح وتحولت قصورهم الى ندوات واحتفالات لانشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجال الانس والطرب والغناء حتى بلغ الامر ببعضهم ألا يمدح أحداً منهم إلا بمئة دينار، لذلك اقترن الابداع بالعطاء، ويروى ان المعتمد بن عباد عندما أُنشد امامه بيتان من الشعر للشاعر ابن وهبون:

قلّ الوفاء فما تلقاه من أحد ولا يمر لمخلوق على بال

وصار عندهم عنقاء مغربة او مثل ما حدثوا عن الف مثقال

يرسل له الف مثقال ذهب[١] ولم تكن قصائد المديح كافة تكسبية، وهنالك قائمة طويلة من الشعراء قد اخلصوا لممدوحيهم وكانوا يمدحونهم عن صدق وفي الشاعر ابن اللبانة يقول ابن بسام " كان مائلا لبني عباد بطبعه، فوفد على المعتمد بعد نفيه وفاده وفاء لا وفادة استجداء " [٢] وهذا يصدق على ابن حمديس وابن عبد الصمد وابن عبدون وغيرهم من الشعراء الذين رثوا امراء دول الطوائف بقصائد مؤثرة رائعة بعد زوالهم ممالكهم وهنالك شعراء ترفعوا عن التجوال والتكسب مثل ابي اسحاق الالبيري وابن العسال وابن خفاجة.، ومعاني قصائدهم المدحية دارت حول الخصال المعروفة من العقل والعفة والعدل والشجاعة[٣] والكرم وأضاف قسم منهم الصفات الخلقية وهيبة المذبر وعظمة المملكة والالقاب الاسلامية المتعلقة

---

[١] النفح ٣ : ١٩٤ .
[٢] الذخيرة ١/٢ : ٦١-٦٢ .
[٣] النفح ٣ : ٦١٦ .

بحماية الدين والمسلمين، وكان لبعض الامراء دواوين باسماء الشعراء تجري عليهم الأعطيات السنوية والشهرية، ويقومون بانتقائهم وتمحيصهم مثل ما حصل لابن حمديس الصقلي الذي امتحنه المعتمد قبل ان يسجله ضمن شعرائه، فقال: "... ودخلت عليه فاجلسني على مرتبة وقال لي: افتح الطاق الذي يليك، ففتحته فاذا بكوة زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه وواقده يفتحها تارة ويسدها اخرى ثم دام سد احدهما وفتح الاخرى، فحين تأملتها قال اجز:

أنظرهما في الظلام قد نـــجما

فقلت: كما رنا في الدُّجنة الأسد

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقهـما

فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد

فقال: فابتزه الدهر نورَ واحدة

فقلت: وهل نجا من صروفه احد

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية والزمني خدمته [١].

وسارت القصيدة المدحية على سنة العرب في الافتتاح بمطالع وقد فصل ابن الاثير (٦٣٧ هـ) فيه ".. فاذا كان مديحا صرفاً لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل... أما اذا كان القصيد في حادثة من الحوادث لفتح معقل او هزيمة جيش او غير ذلك، فأنه لا ينبغي البدء بغزل فان الاسماع تكون متطلعة الى ما يقال في تلك الحوادث " [٢] وجرت العادة بذكر المفاوز والمصاعب واهوال الليل والسير والرحيل ليوجب القصد ويستحق التكريم واضاف الاندلسيون مواقف الوداع وفراق الاهل وما يتصل من تعلق الاسرة بابيهم كما عند ابن دراج القسطلي الذي تكرر في عشرين موضع من ديوانه كما اضاف وصف الاسفار بحراً، ولانـــتعاش الطبيعة في نفوسهم فان كثيراً منهم افتتحوا قصائدهم بوصف الطبيعة

---

[١] العمدة ١ : ٨٠ .

[٢] المثل السائر : ٣ : ٩٦ .

حتـــى في الظروف الحالكة ومزج بعضهم بين الطبيعة والخمر في توظيف مطالع قصائد المديح لاخفاء البهجة والانشراح كما وجدت عندهم مطالع اخرى في وصف الزيارات الليلية بعيداً عن عيون الرقباء متخطياً الاعراف والقوانين متبعاً فيها اسلوب الحكاية في سرد الواقعة و نعتقد ان معظمها كانت من نسج الخيال او الاضفاء التنوع كما في قصيدة طريفة للشاعر محمد بن مسعود في مدح المستعين بالله في عهد الفتنة اذ زعم في مطلعها انه تعرض للسرقة في طريقه الى الممدوح ووصف حكايته مع اللص و مع زوجته التي تطالبه بالطعام والفواكه وموضوعها قريب من موضوع المقامات المبنية على الاحتيال[1] ولحب الحياة وكثرة تفكير الشاعر بالمشيب في حالة ظهوره فان بعضهم ابتدأ قصيدته بالشكوى من الشيب كالشاعر حسان بن المصيصي في قصيدة مدحية في المعتمد ومطلعها[2].

روض الشـــباب تناوبـــت ازهـــاره ولـــــى بنفســـــه وجـــاء بهـــاره

ولغرض تسليط الضوء على هذا الغرض نتناول بالتفصل الشاعر ابن عمار الذي يعد مع ابن دراج وعبد الله بن الحداد وابن حمديس وابن زيدون من أبرز شعراء المديح في القرن الخامس للهجرة.

ابن عمـار: هو ابو بكر بن عمار من قرية قرب مدينة شلب ومن عائلة فقيرة وتعلم فيها العربية والادب ثم اكمل تأدبه في قرطبة وبرزت ملكته الشعرية واخذ يتنقل في بلاد الاندلس للمديح والاستجداء الى ان وفد على المعتضد امير اشبيلية ومدحه بقصيدة واستحسنها وسجله في ديوان الشعراء، وتعرف على ابنه المعتمد وتوثقت عرى المودة بينهم لاشتراكهما في العكوف على الخمر والغناء، وبعد وفاة المعتضد سنة ٤٦١للهجرة اتخذه المعتمد وزيراً له وطمعه الى الاستيلاء على مدينة مرسيه وارسله بجيش واخرج اميرها ابن طاهر سنة ٤٧١ للهجرة واعلن نفسه اميراً عليها متمرداً على المعتمد، وجلس في مجلس التهنئة واستقبل الشعراء واقبل

[1] القصيدة في الذخيرة ١/١ : ٥٥٨-٥٦٠ .
[2] نفسه ١/٢ : ٤٧٨ .

على اللهو والخمر والمتاع، وحاول المعتمد ان يرده عن غيّه عبثاً، ولهما مراجعات شعرية، وتمادى في ذلك وهجا زوجته الرميكية بقصيدة مطلعها:

فيـــا عـــامر الخيـــل يازيـــدها منعـــــتَ القِـــرى وابحـــت العيـــالا

وهي قصيدة فيها الفحش والتهجم، وبينما كان منهمكاً في لهوه وخمره قام قائد جيشه الذي ارسله المعتمد معه بتبديل العبيد والجند من اتباعه وعندما خرج لرؤية حصن من حصونه، اغلق عليه باب المدينة ولم يتمكن الدخول اليها فهرب الى سرقسطة واميرها المؤمن بن المقتدر بن هود، واخذ يرسل قصائد استرحام وطلب عفو الى المعتمد دون فائدة، وارغب المؤمن في الاستيلاء على حصن شقورة شمالي مرسيه من يد اميرها عتاد الدولة عبد الله بن سهل فوقع في شر اعماله وسجنه عتاد الدولة وعرض رأسه للبيع، فارسل المعتمد ابنه بمال وخيل وتسلمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ للهجرة واودعه في غياهب السجن الى ان استثارته عليه زوجته عندما كان في حالة السكر فضرب رأسه بطبرزينة ورجع وقال لزوجته جعلته كالهدهد[١].

وهو شاعر فحل لايبارى في روعة التصوير والاخيلة و الاداء، وقال عنه ابن بسام " شعره غرّب وشرّق، وأشأم في نغم الحُداة على ألسنة الرواة واعرق... وهو يضرب في انواع الابداع بأعلى السهام ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الاقسام " [٢] وقيل انه لو تغزل ولاسيما في المعذرين اسمع سحراً لا يعرفه البيان[٣] واشتهر في المديح والغزل بالغلمان كقوله في غلام [٤].

طـــلّ علـــى خـــدّه الـــعِذار فافتضـــــــح الآس والبهـــــــارُ

---

[١] لتفاصيل حياته : الذخيرة ١/٢ : ٣٦٨ ، والقلائد : ٨٣ ،والحلة ٢ : ١٣١ ، والمغرب : ٣٨٩/١ ، والمطرب : ١٦٩ ، واعمال الاعلام : ١٦٠ ، والخريدة ٢ : ٧١ ، وبغية الملتمس : ٢٢٧ ، وعصر الدول والامارات : ١٩٤ ،ودراسة د. صلاح خالص ، محمد بن عمار ، مطبعة الهدى ، بغداد ، ١٩٥٧ .

[٢] الذخيرة ١/٢ : ٣٦٨ .

[٣] دفاتر اندلسية : ٤٧٦ .

[٤] الذخيرة ١/٢ : ١٠٠ .

وابـــيض هـــذا واســـود هـــذا فاجتمـــــع الليـــــل والنهـــــارُ

وقـــد جـــرى للـــــنعيم فيـــه مـــاءٌ باحـــشاى منـــه نـــارُ

وهي قصيدة طويلة في وصف غلام نبت العذار على جانب خدّه فاجتمع فيه الليل والنهار لشدة بياض بشرته وشدة سواد لحيته.....

كما له قصيدة مدحية في المعتضد تعد من عيون القصائد العربية، وقال عبد الملك المراكشي " انه لم يسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله[١] وفيها تأكيد على معنى العطاء والنوال ومن أبياتها التي تبلغ خمسة وأربعين بيتاً: [٢].

ادر الزجاجـــة فالنســـيم قـــد انبـــرى والـنجم قـد صـرف العنـان عـن السـرى

والصـــبح قـــد أهـــدى لنـــا كـــافوره لمـــا اســـتردّ اللـــيل منـــا العنبـــرا

وعلمـــت حقـــا أن روضـــي مخصـــب لمـــا ســـألت بـــه الغمـــام الممطـــرا

ياســـائلي مـــا حـــمص إلا خـــاتم ابصـــرت اسمـــاعيل فيـــه خنصـــرا

مـــن لا توازنـــه الجبـــال إذا احتبـــى مـــن لا تســـابقه الريـــاح إذا جـــرى

لاشـــيء اقـــرأ مِـــن شـــفار حُســـامه إن كـــنت شـــبهت الكـــتائب اســـطرا

وجهلـتُ معنـى الجـود حتـى زرتـه فقـــراته فـــي راحتيـــه مـــفسرا

٣- الرثاء:

من اصدق موضوعات الشعر، سئل البحتري عن سبب تفوق رثائه على مديحه قال: " من تمام الوفاء أن يعلو على المدح الرثاء "[٣] وقد غلب التأبين والندب والعزاء على محاور الرثاء في الاندلس[٤] ويرى ابن رشيق بعدم وجود فرق بين

---

[١] النفح ٢ : ١٩٤ .

[٢] محمد بن عمار الاندلس رقم (١) ، ص١٨٩ .

[٣] الاغاني ٤١/٢١ ، ط ، دار الكتب المصرية .

[٤] التأبين : الثناء على الميت ، الندب : النواح والبكاء على الميت ، العزاء : الصبر والمواساة.

المديح والرثاء سوى الاول في حي والثاني في ميت، و هذا غير صائب في العزاء والندب، ولا في موسيقى قصائد الرثاء التي تتميز بالانسيابية والترددات الافقية اضافة الى الالفاظ الدالة على الحزن والآهات والقتامة والاسوداد والحديث عن فلسفة الحياة والموت مقرونة بالحكم والمواعظ وذكر الأمم الغابرة على عكس المديح الذي يتصف بالفرح والغبطة والموسيقى العمودية والاصوات الجهورية، وقد اقحم الاندلسيون على سنة المعري موضوعات فلسفية عامة مثل عناصر الحياة " الجسم والنفس والروح " او " البقاء والعدم " او الماء والهواء والتراب "... كقول ابن وهبون (٤٨٤هـ) في استاذه الاعلم الشنتمرى: [١].

سبق الفناء فما يدوم بقاء تفنى النجوم وتسقط العلياءُ

نفسي وجسمي إن وضعتهما معا آلٌ يذوب وصخرةٌ خلقاءُ

وقوله: [٢]

ما النفسُ إلا شعلةٌ سقطت الى حيث استقل بها الثرى والماء

كذبت حياة المرء عند وجودها وجد الحِمام وكان منه الداء

ويمكن تصنيف الرثاء في الاندلس الى المحاور الآتية: -

[١] الذخيرة ١/٢ : ٤٧٨ .

[٢] الذخيرة ١/٢ : ٤٧٨ .

١- رثاء الأولاد والآباء والأقرباء:

و هو اصدق انواع الرثاء، ويغلب عليه الندب واظهار الحرقة التي يعانون منها، والنواح والبكاء بعبارات مشجية والفاظ محزنة التي تصدع القلوب و تذيب العيون الجامدة، ويأتي رثاء الابناء في مقدمة هذا النوع من الرثاء حرارة وحزناً، ولابن عبد ربه قصائد في ابنين له مات اولهما صبيا لم يبرح زمن الطفولة والثاني مات يافعاً قائلاً فيه: [١] .

بَلِيَــتْ عظامُــك والأسَــى يتجــدَّد والصــبرُ ينفَــذُ والبكــا لا يَنفَــذُ

يــا غائبــاً لا يُرتــجى لأ يابــه ولقائــهِ دون القيامــة موعــدُ

مــا كــان احســنَ ملــحداً ضُــمنْتَهُ لــو كــان ضَــمّ ابــاك ثــمّ الملحَــدُ

باليــأس أســلُو عنــك لا بتجلُــدي هيهــاتَ أيــنَ مــن الحــزينِ تجلُّــدُ

وللشاعر الكفيف الحصري القيرواني (٤٧٥ هـ) ديوان سماه " اقتراح القريح " في حوالي الفين وستمائة بيت على حروف الهجاء في ابن له اسمه عبد الغني كان ابن تسع سنين يقوده ويلازمه وكان نبغاً في قراءة القرآن وحسن ترتيله ويفرق بين القراءات والروايات، ومن ديوانه على روى الهمزة[٢]:

حاشــاك مــن نــار علــى الاحــشاء يــــزداد ضِعفــــا حرّهــــا بالمــــاء

عزيتنــي فــي مــا تــرى، وعــزوتني للصــــابرين ولاتَ حــــين عــــزاء

مــن لــي بــاجر الصــابرين وأعظمــي موهونــــةٌ مــــن اعظــــم الارزاء

اودى الــذي فــي وجهــه ويميــنه مــاءان، مــاء حــياء، ومــاء حيــاء

---

[١] يتيمة الدهر : ٧٦/٢ .

[٢] الحسن الحصري : ٢٧٣ .

لــو كــان كــل ابــنٍ نجـــيبا مثلــه منـــع الأبـــاء بكـــا علـــى الابنـــاء
تسـعى الرجـال فـلا تنـال بحرصـها مـا نـال – فـي تسـع – مـن العليـاء
ســالتْ حشاشـــة نفســه مـــن انفـــهِ فشـــهدت منـــه مصـــرع الشـــهداء[1]

ولابي الوليد الباجي قصائد مؤثرة في ابنين له ماتا في الغربة، فندبهما ندباً حاراً.

رعـــى الله قَـــبرين اســـتكانا ببلـــدةٍ همـا اسكـــناها فـي السّـواد مـن القلـبِ
يـــــقرُ بعينـــــي أنْ ازورَ ثـــــراهما وأُلـــصقَ مكنـون الترائـبِ فـي التـربِ
وابكـــى – وابكـــى – ســـاكنيها لعلّنـــي سأنجَدُ مِن صَحبٍ واسعَدُ من سُحبِ[2]

و يدعو الله تعالى ان يرعى قبري ابنيه اللذين يسكنان في سواد قلبه، ويتمنى ان يزور قبريهما ويحضن ثراهما، وانه يبكي آملا من ينجده ويساعده في بكائه.

ولابن حمديس قصيدة في ابيه ولابن خفاجة قصيدة مماثلة في ابن اخت له توفي في عنفوان شبابه.

٢- رثاء الزوجات:

وما يسمى بالبكاء على زوال الرقة والجمال[3] وهو يتصل غالباً ببكاء الزوجة فارقها بسبب الوفاة او الطلاق، وهذا النوع من القصائد لم تبرز في العصر الجاهلي والاسلامي لاسباب اجتماعية مرتبطة بالعادات والتقاليد التي كانت سائدة، ويعد جرير (١١٤هـ) اول مـن تناول هذا الموضوع بقصيدته المعروفة: -

لـــولا الحيـــاءُ لعـــادني اسِـــتعبارُ ولُـــزرت قبـــرَكِ والحبيـــب يُـــزارُ

---

[1] ولابن رومي (٢٨٣هـ) قصائد مؤثرة في رثاء ابنائه الذين كانوا يتوفون في عمر مبكر ، وقد ابدع في قصيدة له في رثاء ابنه الاوسط حيث يصف كيفية الاحتضار وتسليم الروح وما يعقب ذلك من اثر عليهم.

[2] ينظر سيرته : المغرب ١ : ٤٠٥ ، الذخيرة ٩٤/٢ ، معجم الادباء ١١ :٢٤٦ ، ابن خلكان ٣ : ٤٠٨ ، القلائد : ١٨٨ ، الصلة : ١٩٧ ، الامارات والدول : ٣٢٥ .

[3] الادب الاندلسي ، عصر الطوائف ، احسان عباس : ٣١٩ .

ولهـــتِ قلبـــي إذ علتنـــي كبـــرةُ وذوو التـــائم مـــن بنيـــك صـــغار

وهذه القصائد ذو لون ذاتي او ترجمة ذاتيه يتحدث الشعراء فيها عن الجمال وحلاوة العشرة وعن بنيها وحزنه وسهره والفقد الذي يحس به والمأوى الذي كان يأوى اليه في شدائده والصعوبات التي كانت يلاقيه في حياته والفراغ الذي تركته في حياته وسكنه، وهذا يرجع الى قيمة المرأة في المجتمع الاندلسي والوفاء الذي كانوا يتصفون بها لاسيما عقد الطبقة المحافظة و هو انعكاس للرقي الحضاري الذي تميز به المجتمع الاندلسي ومن هؤلاء الشعراء، الشاعر ابو اسحاق الالبيري الذي عرف بمنحاه الزهدي وكان يبكي على زوجته قائلاً [1]: -

عُـج بـالمطيِّ علـى اليبـاب الغـامر واربَـعْ علـى قبـرٍ تضَّـمن نـاظري

واقرالســلامَ عليــه مِــنْ ذي لوعــةٍ صـدعَتْه صدعـاً مـا لـه مـن جـابر

ولـــو أننـــي انصـــفتُه فـــي وُدِّه لقضـيتُ يـوم قضـى ولـم اسـتأخرِ

وشـققتُ فـي خِلـب الفـؤاد ضـريحَه وسقيتُـــه ربـــداً بمـــاء محـــاجري

وهو ينادي صاحبه ان يقف الركب على قبرها ويقرأ عليها السلام من رجل ملتاع صدعت بفراقها وكان من الانصاف أن يلحد معها في قبر واحد وان لم يمت شققت لها في الفؤاد ضريحا سقيته ابداً بدموع منهمرة.

وللاعمى التطيلي (ت٥٤٢ هـ) مرثية في زوجته آمنة تكاد فيها نفسه تذوب من الحزن والحسرات[2].

ونبئـت ذاك الـوجه غيـره البلـى علـى قـرب عهـد بالطلاقـة والبشـر

ومـا فعلـت تلـك المحاسـن فـي الثـرى فقـد سـاء ظنـي بـين ادري ولا ادرى

وقوله:

---

[1] ديوان ابي اسحاق الالبيري ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، دمشق ، ص٧٤ .

[2] ديوان الاعمى التطيلي : رقم ٢٤ ، تحقيق : احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣ .

هنيـــئا لقبـــرٍ ضـــمَّ جِســـمك إنّـــه مـــقَرُّ الحَيـــا أو هـــالةُ القمـــر البـــدرِ

ولابن حمديس مرثية في أم ولده " جوهرة " غرقت في البحر، فتغزل كثيراً بجمالها قوله[1].

أيـا رشـاقةَ غصـنِ البـان مـا هصـرك ويـا تـألف نَظـم الشَّـمل مَـن نثَـرك

ولابن الزقاق (ت٥٣٠هـ) في زوجته " درة " ولابي عامر بن الحمارة تلميذ ابن باجه في زوجته " زينب " و هو من عصر الموحدين مرثية باسمها [2] كما إن للرحالة ابن جبير ديوان كامل سماه " نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح " في زوجته "أم مجد " ولابي حيان الاندلسي(٧٤٥) رائعة مؤثرة في زوجته زمردة.

٣- رثاء النفس:

و هو نوع من الرثاء يغلب عليه القتامة والاسوداد، لاسيما في اناس قضوا ايـامهم فـي مجـد وعنـوان ودارت علـيهم الأيـام الـى السـجن او الأسـر أو العجـز أو المرض أو العوز او الشيخوخة... كما في مرثية مالك بن ريب عندما احس بدنو اجله على سفوح سلسلة جبال حمرين.

ألا ليـــت شـــعري هـــــل أبيـــتن ليلـــة بجنـب الغضـا ازجـي القـلاص النواجيـا

وتنو عت مو ضوعاتهم بين المقار نة بين ما كانوا عليه في ايام مجدهم و ما وصلوا اليه، وشرح مفصل لما كانوا يعانونه من الذل والحزن والمرض و هم على عتبة الموت، بينما صبر آخرون أنفسهم القبول ان الموت سنة الحياة فهو الغاية والنهاية لكل انسان كما في – مرثية لابي عامر ابن شُهيد عندما هدده فالج و هو من منتصف العمر قائلاً:

يقولـــــون قـــد أوْدَى ابـــــو العُـــلا أقِلّـــــوا فقِـدماً مـــاتَ أبـــاءُ عـــامرِ

هو الموت لم يُصدْرَف باسجاع خاطبٍ بليـغ ولـم يُعـــطفْ بانفـاس شـاعرِ

---

[1] ديوان ابن حمديس : ٢١٢ .

[2] رايات المبرزين : ١٢٨ .

ولـم يجتنـب للبطـــش مهجـة قـادرٍ قـوى ولا للـــضّعف مهجـة صـابر

يَحـلُّ عـرى الجّـــبار فـي دار ملكـهِ ويهفـو بـنفس الشـارب المتسـاكر [1]

وعندما اشتد عليه المرض، عزم على الانتحار سنة ٤٢٦هـ وفيه لوعة شديدة وحرقة مريرة وهو لا يتمكن المسير او الوقوف[2].

انـوح علـى نفســي انـدب نبلهـا إذا أنـا فـي الضـراء ازمعـت قتلهـا

رضـيت قضـاء الله فـي كـل حالـةٍ علـيّ واحكامهـا مـا تيقنـت عـدلها

أظـل قعيـد الـدار تجنبـي العصـا علـى ضـعف سـاق اوهـن السـقم رجلهـا

ولمعتمد بن عباد(ت٤٨٨هـ) مرثيات كثيرة في مثواه الاخير في سجن اغمات وفي شده قيده قال: [3]

قيـدي: امـا تعلمنـي مسـلما ابيـتَ أنْ تشـفق او ترحمـا

دمـي شـراب لـك واللحـم قـد اكلتـه لا تهـشم الاعظمـا

ولما أحس بدنو اجله أوصى ان تثبت على قبره ابياتٌ اولها [4].

قبـر الغريـب سـقاك الـرائح الغـادي حقـاً ظفـرت باشـلاء ابـن عبـاد

وقد نودى في جنازته بالصلاة على الغريب بعد ان كان في حياته الملك الاول بين ملوك الطوائف بعد ان حكم ٢٣ سنة وهو القائل: - [5].

المُلـك لا يبقـى لاحـدٍ والمـوت لا يُبقـي علـى احـدٍ

٤- رثاء المدن التي سقطت بيد الافرنج في حقبة ملوك الطوائف:

---

[1] ديوان ابن شهيد : ١١٣ ، اودى : ماتَ ، اقلوا : لا تتكلموا .
[2] نفسه : ٥٥ ، الذخيرة ٢/٢ : ٨٢١ ، البيان المغرب ٤ : ٤٧ .
[3] الذخيرة ١/٢ : ٧٣ ، ديوانه : ١١٢ .
[4] الذخيرة ١/٢ : ٥٧ ، ديوانه : ٩٦ .
[5] الذخيرة ١/٢ : ٥٦ ، ديوانه : ٨٦ .

قال المقري نقلاً عن احدهم " ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق إلا ان طما بمترفيها سيل العناد والذفاق، فأمتاز كل رئيس منهم بصقع... فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره الى ان ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ويراوح معاقلهم بالعيث... " [1] وقد سقطت في عهد امراء الطوائف ثلاث مدن وهي بربشتر وطليطلة وبلنسية إضافة الى معاقل وحصون كثيرة موازية للمالك النصرانية.

وتعد نكبة "بربشتر " وهي من امهات مدن الثغر الاعلى، غزاها النورمانديون، وحاصروها أربعين يوماً دون مغيث من امراء دول الطوائف وسقطت سنة ٤٥٦ للهجرة ولم يبادر المقتدر بالله حاكم سرقسطة لانجاد المدينة لانها كانت من اعمال اخيه يوسف، فتعرضت المدينة لمصيرها وفيها حامية صغيرة ودفع بين اهلها تنازع في القوت والماء لقلتها فلاذوا بطلب الأمان، فغدر بهم وقتلوا جميعاً وجاء في الذخيرة "... فلما خرجوا نكثوا بهم وقتلوا معاً فحصلوا من غنائم بربشتر على ما يقدر حصره كثرة وزعموا انه صار لاكبر رؤسائهم في حصته نحو الف وخمسمائة جارية ابكاراً كلهن، ومن اوقار الأمتعة من الحلي والكسوة والوطاء خمسمائة حمل... اصيب في هذا القتل والسبي مائة الف نسمة "[2] وكان لهذه الحادثة اثر كبير لانها كانت الاولى وقد صورها الفقيه ابن العسال هذه الحادثة في قصيدة منها: [3].

كم موضع غنموه لم يرحم به طفل ولا شيخ ولا عذراء

ولكم رضيع فرقوا عن امه فلله اليها ضجة وبكاء

---

[1] النفح ٤٤٦/٤ .

[2] الذخيرة ١/٣ : ١٨١ .

[3] الروض المعطار في اخبار الاقطار : ٤٠-٤١ .

وارسل الفقيه ابو حفص عمر الهوزني رسائل عدة الى امراء الاندلس يستنهض هممهم ويستجيش عواطفهم مع قصائد شعرية يدخل في باب الجهاد والاستنفار ومن قوله: [1] .

ايا اسفاً للدين اذ ظل نهبة بأعيننا والمسلون شهود

ويثلب بيت الله بين بيوتكم وقادره عن رد ذاك قعيد

وفي سنة ٤٥٧ تمكن المقتدر بن هود بمعاونة المعتمد بن عباد من استعادة المدينة بعد إبادة حاميتها البالغة الف وخمسمائة رجل [2] وقال الشاعر ابو عبد الله بن الحداد قصيدة عن ذلك منها: -

وجلى ظلام الكفر منك بغرة هي الشمس والهندي يقدمها الصبح

أما طليطلة هي واسطة عقد الاندلس، وكانت عاصمة القوط، وفيها بساتين وانهار ورياض وفواكه مختلفة الطعوم والالوان[3] وفي خريف سنة ٤٧٧ للهجرة اقترب الفونسو منها وضرب الحصار حولها لمدة تسعة اشهر ولم ينجدها احد سوى صاحب بطليوس عمر المتوكل بن الافطس الذي لم يكن وحده ذا قوة، وفي محرم ٤٧٨للهجرة استلمت المدينة وسقطت نهائياً بيد الافرنج وحول مسجدها الجامع الى كنيسة[4] وقد صور ابن العسال فداحة الامر ودعا الى ترك الاندلس باسلوب تهكمي ساخر في قراءة للمستقبل في ظل الاوضاع التي كانت سائدة قوله[5].

حثوا رواحلكم يا أهل الأندلس فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وارى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

---

[1] الذخيرة ١/٢ : ٨١-٨٢ .
[2] الذخيرة ١/٢ : ٧٢٦ .
[3] النفح ١ : ١٦٢ .
[4] صورة المجتمع الاندلسي : ٧١ ، النفح ٤٤٧/٤ .
[5] النفح ٤ : ٤٨٣ .

ونقل لنا المقري قصيدة يتيمة في رثاء الاندلس لشاعر مجهول في ثمانيين بيتاً جسد عظمة النكبة والجزع وضيق النفس الذي يشعر به وارجع أسبابها الى انتشار الفسق والفجور[١].

أنـــأمن ان يحـــل بنـــا انتقـــام وفيـــنا الفســـق اجمـــع والفجـــور

وتعرضت مدينة بلنسية لحصار القائد الاسباني السيد القنبيطور لعشرين شهراً من ٤٨٥-٤٨٧ للهجرة حيث ارغم قاضيها ابن جحاف على التسليم وعقد الصلح، فحول مسجدها الى كاتدرائية وصادر اموال ابن جحاف ثم احرقه وسط المدينة بحجة اخفائهِ بعض الاموال[٢].

ووصف ابن خفاجة المدينة في ظل الاحتلال بعد ان خرج منها[٣].

عاثـــت بساحـــتك العـــدا يـــا دار ومحـــا محـــاسنك البلـــى والنـــار

فـــاذا تـــردد فـــي جـــنابك نـــاظر طـــال اعتبـــار فيـــك واســـتعبار

أرض تقاذفـــت الخـــطوب باهلهـــا وتمخـــضت بخرابهـــا الاقـــدار

كتبـــت يـــد الحـــدثان فـــي عرصـــاتها لا أنـــت أنـــت ولا الـــديار ديـــار

وبعد وفاة السيد قمبيطور خلفته زوجته خيمينيا التي لم تتمكن من الصمود أمام جيش المرابطين فاضرمت النار في المدينة وخرج منها سنة ٤٩٥ هـ وعبر ابن خفاجة عن فرحته قائلاً[٤].

الآن ســح غمــام الــنصر فــانهملا وقــام صــغو عمــود الــدين فاعتــدلا

ولاح للسـعد نجـم قـد خـوى فهـوى وكـر للنصـر عصـرٌ قـد مضـى فخـلا

---

[١] نفسه والصفحة .
[٢] نفسه والصفحة .
[٣] ديوان ابن خفاجة : ٣٥٤، ٢٠٨ .
[٤] ديوان ابن خفاجة ٣٥٤ ، ٢٠٨ .

وسقطت المدينة نهائياً سنة ٦٣٦ للهجرة في حقبة الاضطراب السياسي في نهاية دولة الموحدين وقد وصلنا نتاج شعري ونثري غزير عن تلك الفادحة منها صرخة ابي عبد الله بن الابار البلنسي (ت٦٥٨ هـ) في قصيدته السينية والتي تدخل في باب شعر الاستغاثة والاستنجاد في سبعة وستين بيتاً في رواية النفح[١] وفيها تفصيلات عن النكبة التي تعرضت لها المدينة، كما له قصيدة اخرى همزية في الموضوع نفسه في تسعين بيتاً وفي ديوانه قصائد ومقطعات نثرية كثيرة عن فداحة النكبة وهي خليطة بين الندب والبكاء والاسف والحسرة والذكريات [٢].

٥- رثاء ممالك دول الطوائف التي سقطت بيد المرابطين اعتباراً من ٤٨٣هـ:

كان لسقوط امارات الطوائف في الاندلس اثر كبير في اشعال جذوة التأبين والبكاء والتفجع والاسى عند شعراء الاندلس، ودليل على خصلة الوفاء عندهم واستأثرت دولة بني عباد بنصيب اكبر من الاس والتفجع لان ملكه كان راعى الشعر والادب وصاحب مواقف تحسب له عندما طلب الغوث من المرابطين في شمال افريقيا على الرغم من النصح له بعدم فعل ذلك وقال مقولته المشهورة " أرعى الابل عند ابن تاشفين خير من أرعى الخنازير عند الاذفونش" وان قصة العزيز الذي ذل كانت تثير العواطف اكثر من الممالك التي سقطت اضافة الى ما عانه واسرته في الاسر من الذل والمعاملة السيئة، وتعد قصائده سجلاً حافلاً لمعاناته بتفاصيلها منذ دخول المرابطين الى اشبيلية في رجب عام ٤٨٤ هـ بعد حروب طاحنة استمرت اشهراً قلائل موقعاً فيها الذهب ومن ثم مقتل ابنه مالك بين يديه وإغماده السيف وانصرافه الى القصر فإخراجه مكبولاً[٣] .

---

[١] النفح ٤: ٤٥٧ ، ازهار الرياض ٢: ٢٠٧ .

[٢] ديوان ابن الابار : ق :٥٧ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، تحقيق : عبد السلام الهراس ، تونس للنشر ١٩٨٥ .

[٣] ينظر التفاصيل: القلائد :١٩ ،وفيات الاعيان ٤: ١٢١ ، اعمال الاعلام : ١٦٣ ، صورة المجتمع الاندلسي : ٤٤-٦١ .

وقد وصف ابن اللبانة الناس في اشبيلية قائلاً "... وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم، وكشف وجوه المخدرات العذارى، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى " [١] ووصف المعتمد ذلك شعراً قائلاً [٢]:

لمـــــا تماســـــكت الدمـــــوع وتنـــــبه القلـــــب الصـــــديع

قـــــالوا الخضـــــوع سياســـــة فلـــــيبد منـــــك لهـــــم خضـــــوع

والـــــذ مـــــن طعـــــم الخـــــضو ع علـــــى فمـــــي الســـــم النقيـــــع

ثم جُمع هو وما بقى من اهله وحملتهم السفن على نهر اشبيلية " والناسُ قد حشروا بضفتي الوادي وبكوا بدموع كالفوادي، فساروا والنوح يحدوهم والبوح باللوعة لا يعودهم " [٣] ونفي واسرته الى اغمات وسجن في قلعتها وضيق عليه اشد التضييق وكان مكبلاً بالسلاسل وقُتل أبناؤه الأربعة بيد المرابطين وسبيت بنته " بثينة " وبيعت على انها جارية [٤]، وفي الطريق في شمال افريقيا، رأى جمعاً من الناس يصلون صلاة الاستسقاء، فقال معبراً عن آلامه وأحزانه بان دموعه الغزيرة تغني المصلين عن مياه الامطار، ولكنها ممزوجة بالدماء من غير فائدة [٥].

خرجـــوا ليستســـقوا فقلـــت لـــــهم دمعـــي ينـــوب لكـــم عـــن الانـــواء

قـــالوا حقيـــقٌ فـــي دموعـــك مقنـــع لكنـــــــها ممزوجـــــة بالـــــدماء

وضيق عليه في سجنه، واضطروا الى لبس الملابس الخشنة، وامتهنت بناته مهنة الغزل لتوفير لقمة الحياة وقد رآهم في العيد[٦].

فيمـا مضـى كنـت بالاعيـاد مسـروراً فسـاءت العيـد فـي اغمـات مأسـورا

---

[١] النفح ٤ : ٢١٦ .
[٢] الذخيرة ١/٢ : ٥٣ ، الحلة ٢ : ٦٥ . ديوانه : ٨٨ .
[٣] القلائد : ٢٣ ، النفح ٤ : ١٤ .
[٤] النفح ٤ : ٢٨٤ .
[٥] ديوانه : ٨٩ ، ١٠٠ .
[٦] المصدر نفسه.

تـرى بناتـك فـي الاطـــمار جائعـة يغـزلن للنـــاس لا يملكـــن قطميـرا
بـــرزن نحـــوك للتســـليم خاشـعة أبصـــارهن حسيـــرات مكاســـيرا
يطـأن فـي الطـين والاقـدام حافيـة كأنهـــا لـــم تطـــأ مســـكا وكـــافورا

وعاش في السجن بحزن عميق أسى ومرارة وشعور عميق بالغربة والإذلال، وكان هذا سبباً في ذوبانه ووفاته في رجب سنة ٤٨٨هـ عن سبع وخمسين سنة، ودفن الى جانب زوجته التي ماتت بجذبه قبل اسبوع، وكانت نكبته وما نظم حوله من الشعر صورة محزنة في بروز غرض جديد في الادب الاندلسي فيما يسمى بالعظمة الزائلة، ورثاه الشعراء بقصائد مؤثرة تدل على قمة الوفاء والصدق الشعوري بعيداً عن الرجاء والتكسب في رجل لم يبق له من السلطة والمال شيئاً، ومنهم: -

الشاعر ابن اللبانة الداني (ت٥٠٧هـ) شاعر الوفاء وريحانة الامراء[١] الذي احتفظت ذاكرته بصور عميقة مؤثرة للمعتمد بن عباد ونظم في ملكهم كتب مفقودة منها " نظم السلوك في مواعظ الملوك" واخبار الدولة العبادية " و " الاعتماد في اخبار بني عباد " و " سقيط الدرر ولقيط الزهر "[٢].

وتتبع مصير المعتمد منذ نقله الى اغمات حتى وفاته بالمراثى الجياشة وبالدموع الغزيرة ومن قصائده يصور كيف نقل بنو عباد في السفينة [٣] منها:

نســيتُ إلا غـــداة النهـــرِ كـــوْنهمْ فـــي المنشـــأت كـــاموات بألحـــادِ
والنـاسُ قـد مـلاوا العبـرين واعتبـروا مـــن لؤلـــؤ طافيـــاتٍ فـــوق ازبـــادِ
و
ســارت ســفائنهم والنــوح يصحـبهـــا كأنهـــا إبـــلٌ يحـــدو بهـــا الحـــادي

[١] المغرب ٢ : ٤١١ .
[٢] القلائد : ٢٣ .
[٣] نفسه : ٢٣ .

كم سال في الماء من دموعٍ وكم حَملتْ تلـك القطائـعُ مـن قطعـات اكبـاد

وزاره باغمات سنة ٤٨٦ للهجرة والقى عليه قصيدة ميمية يقول فيها: -

نـــدبتك حـــــتى لـــم يخـــلِّ الاس دموعـاً بهـا ابكـي عليـك ولا دمـا

وانـي علـى رسـمي مقـيم فـانْ أمـت ســأجعل للبـاكين رســمي موســما

بكـــاك والـــريح شـــقت جيـــوبها عليـك ونـاح الرعـد باسـمك معلمـا

و هي قصيدة طويلة فيها شاعرية وعبقرية، وجعل من مأساة المعتمد نهاية للمجد والسؤدد وضاقت عليه الارض وبكاه حتى جفت عيناه فلم يجد ما يبكيه من غير الدماء وشاركت الطبيعة احزانه فبكاه الحيا وشقت الريح جيوبها وناح الرعد ومزق البرق ثيابه واسود الكون حدادا.

وله قصيدة دالية تعد من أروع ما قاله منها [١].

تبكـي السـماءُ بـدمع رائـحٍ غـادي علـى البهالـيلِ مِـنْ ابنـاء عـبّادِ

علـى الجبـال التـي هـدت قواعـدها وكانـت الارض مـنهم ذات اوتـادِ

عريسـةٌ دخلتـها النائبـات علـى اسـاودٍ لهـم فيـها وآسـادِ

إنْ يُخلعـوا فبنـو العبـاس قـد خلعـوا وقـد خلـتْ قبـل حمـصٍ ارضُ بغـدادِ

ياضـيفُ أُقفـرَ بيـت المكرمـات فخـذ فـي ضَـمِّ رحلِـكَ واجمـع فضـلة الـزادِ

ويـا مؤمِّـل واديهـم لـيْسُكنهُ خـفَّ القطـينُ وجـفّ الـزرعُ بـالوادي[٢]

و هي قصيدة طويلة يقول منها ان السماء تبكي بسحبها على السادة من بني عباد الذين كانت الاندلس ترسو بهم كما ترسو ارض بالجبال وان قصورهم تحولت الى غابة نزلت عليها الكوارث واقتحمتها اسود مفترسة وحيات سامة ضخمة، ثم

---

[١] ديوانه : تحقيق : محمد محمد السعيد رقم ٢٦ .

[٢] رائح غادي : راجع ذاهب ، البهاليل : السادة ، اوتاد : جبال ، اساود : جمع اسود : الافعى الكبيرة ، العريسة : غيل الاسد والاساد ، حمص : اشبيلية ، خف القطين : رحل السكان .

يعزي نفسه بان قبلهم خلع آل عباد وسقطت بغداد ويطلب من ضيوف المعتمد بان يستعدوا للرحيل فاصبح الارض مقفرا واجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا.

كما له قصيدة تائية في اثنين وأربعين بيتاً يبكي على دولتهم ومطلعها [1].

لكـــل شـــيء مـــن الاشـــياء ميقـــات وللمنـــــى مـــــن منـــــائيهن غايـــــات

ومن الشعراء الآخرين:

أبو بحر بن عبد الصمد الذي زاره، وعندما وصل الى اغمات قيل له انه توفى، وزار قبره وخرّ على تربه ولثمه وكان عيدا وانشد قصيدته الدالية مطلعها[2].

ملـــك الملـــوك أســـامعٌ فانـــادي أم قدعـدتك عـن السَّـماع عـوادى

لمـا خلـتْ منـك القصـورُ فلـم تكـن فيهـا كمـا قـد كنـت فـي الاعيـاد

قبلـتُ فـي هـذا الثـرى لـك خاضـعاً وتخـذت قبـرك موضـع الانشـاد

ويذكر ابن عبد الصمد المجد الزائل وبكى حتى قيل بلل القبر بدموعه وهو يطوف حول قبره والناس يطوفون وراءه، وتحول قبره من ذلك اليوم الى مزار[3] وهي قصيدة مؤثرة.

أما ابن حمديس (٥٢٧هـ) شاعر الطبيعة والغزل فيعد من الاوفياء للمعتمد وقد نظم فيه قصيدة بعد عام من وفاته وهي قصيدة معارضة لدالية ابن اللبانة يتحدث عن محامده ومكارمه وشجاعته وبأسه والاسوداد الذي داهم القوم بذهاب دولته، وهي قصيدة في ستة وثلاثين بيتاً منها[4].

ســـأدمي جفـــوني بالسُّـــهاد عقوبـــة اذا وقفـــت عنـــك الـــدموع الجواريـــا

---

[1] ديوانه : ١٣ ، للمزيد من ترجمة ابن اللبانة ينظر : القلائد : ٢٤٥ ، المغرب ٢ : ٤٠٩ ، المعجب : ٢٠٨ ، المطـرب : ١٧٨ ، والخريـدة ٢ : ١٠٧ ، والتكملـة رقـم ٥١١ ، والفـوات ٤ : ٢٧ ،والوافى بالوفيات ٢٩٧/٤ ،والبغية : ٢١٣ ، اضافة الى اخبارمتفرقة في الذخيرة والنفح .

[2] القلائد : ٣١ .

[3] الذخيرة ١/٢ : ٥٨ ، النفح : ٥ : ٣٨٩ .

[4] ديوان ابن حمديس : رقم ٣٥ .

وامنـــع نفســـي مـــن حيـــاة هنيئـــة لأنـــــك حـــيّ تســـتحق المراثيـــا

وتعد قصيدة ابي محمد عبد المجيد بن عبدون اليابري (ت٥٢٩ هـ) المعروفة بالبسامة في مملكة بني الافطس في بطليوس من اشهر القصائد، و هي المملكة التي سقطت بيد المرابطين سنة ٤٨٨ للهجرة واميرها المتوكل بن الافطس، وكان له دور في الدعوة لتوحيد الاندلس من خلال تكليفه الفقيه ابي الوليد الباجي بالسير الى ملوك الطوائف لنبذ الخلافات، ومن أوائل من دعا الى الاستعانة بالمرابطين لذلك وصفه ابن الخطيب " وكان المتوكل ملكاً عالي القدر مشهور الفضل، مثلاً في الجلالة والسرور ومن أهل رأي وحزم والبلاغة وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم "[1] وقد وقع في خطأ كبير عندما احس بخطر المرابطين ونيتهم للقضـــاء عليه

استعان بالافرنج مقابل التنازل عن ثلاثة مدن و هي اشبونه وشنترة وشنترين لهم، فهاجم عليه قوات المرابطين ولم يتمكن الفونسو السادس ملك قشتالة من انجاده فقبضوا عليه وعلى ولديه الفضل والعباس فقيد وأهين بالضرب لكشف ما عنده من اموال، وبعد اقراره قتلوا ولديه على مقربة منه ذبحاً، فقام ليصلي، فطعنه المرابطون برماحهم وقتلوه وقد رثاه الشعراء منهم ابن عبدون بالقصيدة اعلاه وقال عنها عبد الواحد المراكشي " قصيدته الغراء لا بل عقيلته العذراء التي ازرت على الشعر وزادت على السحر، وفعلت في الالباب فعل الخمر... فقل لها النظير وكثر اليها المشير " [2] ونقل ابن بسام منها ثمانية وخمسين بيتاً، وفي المعجب بلغت خمسة وسبعين بيتاً، وقد شرحه المستشرق دوزي وترجمت الى الفرنسية والاسبانية، يقول ابن عبدون[3]: -

---

[1] صورة المجتمع : ٨٤ .
[2] المعجب : ١٢٨ .
[3] للمزيد عن ترجمته و شعره يذظر : الذخيرة ٢/١ : ٨١٨ ، القلائد : ١٤٥ ، المغرب : ٣٧٤ ، الخريدة ٢ : ١٠٣ ، الصلة : ٨٣١ ، التكملة : ٤٠٧ ، المطرب : ١٨٠ ، المعجب : ١٢٨ ، ١٤١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ،والفوات ١٩/٢ ، والنفح متفرقة .

الــدهرُ يفجــع بعــد الــعين بــالاثر فمــا البكــاء علــى الأشــباح والصُّــورِ
أنهــاك أنهــاك –لا الومــكَ موعظــةً عــن نومــةٍ بــين نــاب اللّيــث والظُّفــرِ
فالــدهر حــرب وانْ ابــدى مســالمةً والبـيض والسـور مثـل البـيض والسـمر

وتبدأ القصيدة بمطلع تقليدي بشكوى من الدهر الفاجع والدنيا الخادعة ثم ينتقل الى الاعتبار بالماضيين وذكر الدول والاسر الزائلة عبر التاريخ ليخلص الى ذكر بني الافطس والتراحم على مجدهم الزائل في ثمانية عشر بيتاً وقال عنها ابن بسام " اقتضى منها ابو محمد اثر فحول القدماء من ضربهم بالامثال في التأبين والرثاء بـالملوك الاعـزة وبـالوعول الممتنعـة فـي قلـل الجبـال والاسـود الخـادرة فـي الفيـافي والنسور والعقبان والحيات في طول الاعمار "[1].

[1] الذخيرة : ٢/٢ : ٧٢١ .

عصر المرابطين

ينتسب امراء هذه الدولة الى قبيلة: لمتونة " من برابرة صنهاجة في المغرب، وكانوا يضعون لثاما على وجوههم، فلقبوا بالملثمين ومن ثم بالمرابطين نسبة الى رباط في جزيرة قرب السنغال كانوا يتعبدون بها[1] وهم سكان الصحراء الكبرى واطرافها، ومفكر هذه الدولة هو عبد الله بن ياسين، الذي اخذ على عاتقه تربيتهم دينياً وروحياً وتخليصهم من الجهل المطبق عليهم في امور الدين، ولما كثر عددهم وقويت شوكتهم علمهم أساليب الحرب وحثهم على الجهاد، فتوغلوا في بلاد المغرب، يدعون الناس للانضمام اليهم، فمن استجاب لهم واخذ بمبادئهم سالموه ومن خالفهم قاتلوه، واستشهد سنة ٤٥٦ هـ في احدى معاركه في نشر الدين الاسلامي جنوب الصحراء، فتولى امرهم ابو بكر عمر اللمتوني الذي تفرغ للجهاد في بلاد السودان، وسلم الامر الى ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي واصل الجهاد في المغرب، وفتح فاس وطنجة وسبتة ثم بنى مدينة مراكش وجعلها دارا له، فعظمت هيبته لاسيما بعد وفاة ابن عمه ابي بكر بعد ان بلغ بجهاده نهر النيجر، ويرجع اليه الفضل في انتشار الدين الاسلامي في مناطق جنوب وغرب الصحراء الكبرى في افريقيا، واصبحت هذه البلاد تحت إمرته [2] وفي تلك الفترة كانت الاندلس تعاني التفرقة والضعف في عهد ملوك الطوائف، وكان الفونسو السادس ملك قشتالة يجوب الاندلس دون رادع، وفي سنة ٤٧٩ هـ ارسل المعتمد بن عباد امير دولة بني عباد في اشبيلية بمشاورة المتوكل بن الافطس، امير بطليوس رسالة الى يوسف بن تاشفين يخبره بما آل اليه حال المسلمين في الاندلس، طالباً منه العون والاستغاثة فعبر الى الاندلس والتحم مع

---

[1] الادب العربي في الاندلس : ٢٦ ، د. علي محمد سلامة ، دار العربية للموسوعات ، بيروت ، ١٩٨٩ .

[2] للمزيد ينظر : البيان المغرب : ٧١٤ ، الحلة السيراء : ٢١٢ ، عصر المرابطين والموحدين ١ : ٣٧ ، محمد عبد الله عنان ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

جيش الاندلس، والتقى بجيش الافرنجة سنة ٤٧٩ هـ في موقعة الزلاقة، وانتصر عليهم وتلقب بامير المسلمين [١].

ولقبه الخليفة العباسي " المقتدي بأمر الله " بلقب ناصر الدولة، ومن ثم قضى على ملوك الطوائف تباعاً وضم الاندلس الى ملكه، وكان رجلاً تقياً زاهداً، وتوفي في

سنة ٥٠٠ للهجرة، فآلت الامارة الى ابنه علي الذي جعل من مقر حكمه " مراكش " تاركاً الاندلس لاخيه " تميم " وللقادة العسكريين لاسيما سيرين بن أبي بكر، ولم تنعم الاندلس في عهدهم بالاستقرار لتعصبهم الشديد للدين وتمسكهم بمذهب الامام المالكي وتركهم الامور للفقهاء ورجال الدين مع تدخل المرأة في شؤون الحكم، وفي عهدهم سنة ٥١٢ هـ سقطت سرقسطة وما يحيط بها بيد النصارى وكانت تعد السد المنيع امام الافرنج، كما انتشر روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند امرائهم في أواخر عصر علي بن يوسف بن تاشفين وعدم السير على خطى الاسبقين منهم وانحراف نظام الحكم عن نظام الشورى الى الوراثي الذي سبب صراعاً عنيفاً على منصب ولاية العهد بين اولاد علي بن يوسف، وظهور " المهدي محمد بن تومرت " في جبال المصامدة بالغرب واستغلاله لسوء الاحوال الاقتصادية والسياسية وكان سبباً في قيام دولة الموحدين وسقوط دولة المرابطين بعد حكم دام ستين سنة[٢].

الحالة الثقافية: ان الحقبة الواقعة بين سقوط دول الطوائف الى نهاية القرن ووفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة كانت انتقالية قلقة بالنسبة للشعراء لسقوط معظم بلاطات الامراء التي كان فيها الشعر يلقى الرعاية والتشجيع، اضافة الى انشغال المرابطين بالقتال، وكانوا ينتمون الى قبائل اللمتونية الذين يتصفون بالخشونة

---

[١] المصدر نفسه.

[٢] تاريخ دولة المرابطين والموحدين : ٢٣٣ ، د. علي محمد الصلابي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٥ .

والبداوة والتعصب لذلك ضعف الادب لاسيما الشعر في تلك الحقبة إلا قصائد بالغة الصدق قيلت في رثاء الممالك التي اشرنا اليها والتي كان ظهورها امتداداً للنهضة الادبية السابقة لذلك قال ابن بسام في حديثه عن الحصري القيرواني "... ولما خلعوا واخوت تلك النجوم وطمست للشعر تلك الرسوم " [1] وفي موضع آخر " والادب بها اقل من الوفاء، حامله اضيع من قمر الشتاء "[2]، وقد لخص الفتح بن خاقان الحال شعراً[3].

ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها على عربي ضاع بين اعاجم

ولا ذنب لي عند الزمان علمته سوى انني للشعر آخر ناظم

وبعد ذلك تأقلم المرابطون مع الشخصية الاندلسية واخذوا يهتمون بالشعر والادب وظهر قادة مرابطون يسمعون الشعر ويشجعونه كأبي اسحاق ابراهيم بن يوسف ممدوح ابن خفاجة الذي اهدى له الفتح بن خاقان كتابه " القلائد " واصبحت هنالك حركة ادبية ولاسيما ان معظم الشعراء كانوا مخضرمين مثل الاعمى التطيلي وابن خفاجة وابن حمديس وابن عبدون التجيبي وابو الصلت الداني وابن سارة الشنتريني ومن ثم ابن الزقاق البلنسي (٥٣٠ هـ) وعملاق الزجل ابن قزمان (٥٥٤) والرصافي البلنسي (٥٧٢هـ) وغيرهم، ولما كانت الدولة مبنية على اسس شرعية فقد اهتموا بالفقهاء ورجال الدين وبرز منهم القاضي الشهيد ابو علي الصدفي، وكان عالماً بالحديث وابو بكر بن العربي (٥٤٣ هـ) صاحب كتاب احكام القرآن والقاضي عياض (٥٤٤ هـ) الذي برع في القضاء والفقه والحديث واللغة والادب وفي مجال اللغة نبع ابن السيد البطليوس (ت٥٢١ هـ) وكان متبحراً في النحو وعلم اللغة وابن عبد الله التدميري (ت٥٥٥هـ) وابن اللجاش وفي التاريخ والادب نبغ ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب الذخيرة، والفتح بن خاقان وكتاباه قلائد العقيان ومطمح

---

[1] الذخيرة ١/٢ : ٦٦ .
[2] الذخيرة ١/١ : ٢٠ .
[3] القلائد : ٢٩٢ .

الانفس " وابن بشكوال وكتابه الصلة وفي الجغرافية نبغ ابو عبد الله محمد الادريس وعبد الله بن الحجاري صاحب كتاب المسهب في غرائب المغرب " والذي نقحه ابن سعيد باسم " المغــرب في حلى المغرب "[١] وغيرهم.

أهم الاغراض الشعرية: استمرت الاغراض الشعرية السابقة كالمديح والغزل والرثاء وانسحبت من الواجهة لتحل محلها أغراض شعرية متناسبة مع خط الدولة الاسلامية وهي الزهد والتصوف اضافة الى شعر الطبيعة الذي كان منفساً للشعراء لاظهار براعتهم الفنية لاسيما المخضرمون منهم، واصبح الشعراء يكتبون لانفسهم او لزملائهم من القراء ليتحول الشعر من العامة الى الخاصة وغلب العقل على العاطفة ليتدحرج الشعر الى بطون الكتب ويغلب عليه الموعظة والصنعة والجمود.

الــزهد: يقصد بالزهد لغوياً: الرغبة عن الشيء وفي الاصلاح: ترك المباح المحبوب المقدور لأجل الله تعالى فتارك المحظورات لا يسمى زاهداً، وتارك ما لا يؤوبه به لا يسمى زاهداً، وترك ما لا يقدر عليه لا يكون زاهداً [٢]. والزهد يكون في الخُلق والعمل لا في القول فقط.

و هو من خلق المسلم الكريم ولا يعني البخل، كما لا يعني العطل والكسل والاستغلاق، وهو نقيض الطمع والتبذير والشهوة، والزهد من الاغراض الرئيسة في الادب العربي منذ انتشار الدين الاسلامي الحنيف وقد نقل المسلمون الاوائل خلق المتزهد الى الاندلس لتناغمه مع الرهبنة التي كانت معروفة عند السكان الاصليين من الكاثوليك، وقد نقلت المصادر اسماء الشعراء البارزين منهم ابي وهب عبد الرحمن القرطبي (ت٣٤٤ هـ) وفي المغرب[٣]" انه لا يكلم ولا يجالس احداً وكان اكثر دهره مفكراً ووجهه على ركبته "

منزلــي حيــث شــئتُ مــن مســتقر الــ أرض أُســـــقى مـــــن الميـــــاه زلالا

---

[١] للمزيد ينظر : تاريخ دولة المرابطين والموحدين : ٢١٠-٢٣٠ ، د. علي محمد الصلابي .
[٢] الادب الاندلسي : ١٤٠ ، د. منجد .
[٣] ترجمته وشعره في المغرب : ١ : ٥٨ ، التكملة : ٧١٨ ، النفح ٣ : ٢٠٩، ٢٢٦ .

لـــيس لـــي كســـوة أخـــــاف عليهـــا مـــــن مغيـــرٍ ولا تـــرى لـــي مـــالا

اجعـــل الســـاعدَ الـــــيمين وســـادي ثـــم اثنـــي – اذا انقلبـــت – الشَّـــمالا

ويقول بانه لا يملك منزلا يقيه البرد وينام فيه ليلا ولا ثوباً غير الثوب الذي يستر جسده ولا شيئاً يخاف عليه، ويكفيه جرعات من ماء عذب ويتخذ يمينه او شماله وسادة له، وهذا يتنافى مع روح الدين الاسلامي لان الله تعالى اكرم الانسان وفرقه عن الحيوان واوجب عليه العمل والستر وتكوين اسرة بما يفيد المجتمع الاسلامي ويعمر منازله.

وفـي عصـــر ملـوك الطوائـف بـرز علـي بـن اسماعيل الفهـري المعـروف بالطَّيطل[1] وكان من الادباء النبلاء والشعراء المحسنين مشاركاً في الحديث والفقه ثم مال الى النسك والتقشف ونظم في معانيها اشعاراً كثيرة واتخذ لنفسه مربطاً في بستان له ولزم العبادة والنسك ومن نظمه:

إذا سـد بـابٌ عنـك مـن دون حاجـةٍ فدعـــه لاخـــرى ينفـــتح لـــك بابُهـــا

فـــانّ جِـــراب البطـــنِ يكفيـــك ملـــؤه ويكفيـــك ســـوءات الامـــور اجتنابهـــا

ولا تـــك مـــبذالا لعرِضـــك واجتنـــب ركـــوب المعاصـــي يجتنبـــك عقابُهـــا

وله وصف دقيق لنملة صورا ضعفها وصغرها وقوتها مدخرة له مهتديه في ظلمة الليل الى خرت كثقب الابرة لا يسمع احد له حركة، اولها [2].

تســـري اعتســـافاً ولقـــد تهتـــدي فـــي ظلمـــة الليـــل الـــى الخـــرت

و هذه الأبيات حجة على الذين يتركون الدنيا ومطالبها كاملة فيما يدعى بالتقشف الشديد كما وردت في أبيات أبي وهب القرطبي التي اشرنا اليها.

---

[1] الجذوة : ٢٩٤ ، البغية : ١٢١٢ ، الذيل والتكملة ٥ : ١٩٥ ، الذخيرة ٢/٢ : ٧٩٧ .

[2] الذخيرة : ٢/٢ : ٧٩٧ .

كما برز في القرن نفسه ابو اسحاق الالبيري (٤٦٠ هـ) وكان فقيها محدثاً ورعاً، وتتلمذ على يد شيخه ابن أبي زمنين صاحب كتاب " المدونة واحوال السنة وحياة القلوب في الزهد " [١] وعمل كاتباً عند قاضي غرناطة في عهد باديس بن حبوس وحمل كثيراً على الوزير اليهودي اسماعيل بن النغريلة اليهودي لتسلطه على شؤون الحكم مما ادى الى نفيه وابعاده عن غرناطة، وبعد وفاة باديس وتولي ابنه يوسف، عاد الى غرناطة والقى قصيدة كانت سبباً في اندلاع الثورة على اليهود سنة ٤٥٩ للهجرة وقتل عدد كبير منهم [٢].

وقد انزل الله في وحيه يحذر عن صحبة الفاسقين

ويضحك منا ومن ديننا فانا الى ربنا راجعون

فبادر الى ذبحه قربةً وضح به فهو كبش سمين

يقول ابن سعيد في المغرب "له ديوان ملآن من اشعار زهدية ولاهل الاندلس غرام بحفظها " [٣] وكانت قصائده حماسية بمشاعر دينية، وأول قصيدة له في ديوانه تائية في الزهد في مئة بيت وسبعة مطلعها:

تفتُّ فؤادك الأيام فتّا وتنحت جسمكَ الساعات نحتاً

وتدعوك المنونُ دعاءَ صدقٍ ألا يا صاحِ: أنت أُريد انتا

ومن الشعراء الآخرين بكار بن داود المرواني[٤] الذي ادرك المرابطين وابو عمران المارتلي (ت٦٠٤هـ). [٥]

---

[١] دفاتر اندلسية : ٥٥٢ .

[٢] ديوان أبي اسحاق الالبيري : ٩٦ ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٦ .

[٣] المغرب ٢ : ١٣٢ .

[٤] ترجمته وشعره في المغرب : ٤١٥ ، النفح ٣: ٣٣٤ .

[٥] ترجمته في: المغرب ١ : ٤٠٦ ، النفح ٣: ٢٢٥ ،٢٩٦ ، التكملة : ٤٥٧ ، الغصون اليانعة : ١٣٥ .

وقد قسمنا الزهد في كتابنا " صورة المجتمع الاندلسي " [1] إلى:

١- **الزهد الاخلاقي وكانوا على فئتين.**

أ – فئة انعزلت في البيت واعتكفت على العبادة والتقوى مكتفية بما عندهم من زاد او محصول او حرفة مقنعة وما يوفر لهم من الأمن والصحة.

ب – فئة اتخذت من لسانها وفعلها قدوة للآخرين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر باسلوب وعظي بلهجة خطابية وروح مثالية وانغمس بعضهم في السياسة كأبي اسحاق الالبيري وأبي الوليد الباجي.

٢- **زهـد الشيخوخة:**

عندما يصل العمر الى مرحلة السقم والمرض والعجز يستغفر ويتعفف بعد ان يدرك سنة الحياة ومشقة غروبها، وزهد الشعراء جله من هذا النوع كقول أبي القاسم خلف بن فرج الالبيري المعروف بالسمسير (٤٨٤ هـ) والذي اشتهر بالهجاء واللهو في شبابه ثم استغفر وتاب ومن قوله: [2]

جملـــــة الـــــدنيا ذهـــــاب مثـــــل مـــــا قـــــالوا ســـــراب

والـــــذي منهـــــا مشـــــيد فخـــــــــــراب ويبـــــــــات

٣- **زهد زوال السلطة و الجاه:**

بعد ان يفقد سلطته وماله وجاهه يعتكف ويعتزل، ولنا في ذلك عيسى ابن لبون الذي كان قائماً على مربيطر ووزيراً وبعد عزله كان يطوف في البلاد ويتزهد وهو القائل: [3].

نفضـتُ كفـي عـن الـدنيا وقـلت لهـا اليـك عنـي فمـا فـي الحـق اعتـبنُ

---

[1] صورة المجتمع الاندلسي : ١٨٧-٢٠١ .
[2] الذخيرة ٢/١ : ٨٩٤ .
[3] نفسه ١/٣ : ١٠٨ ، الحلة ٢ : ١٧١ .

ومـــا مصـــابي ســـوى مـــوتي ويـــدفنني قـــوم ومـــا لهـــم علـــم بمـــن دفنـــوا

اضافة الى الزهد المؤقت الذي يذتاب الانسان في المحن ويزول بزوالها، ومعانيهم تدور حول: الموت، وازدراء الدنيا وطلب الآخرة والطاعة والانقياد لله تعالى، والاستغفار والمناجاة والتفكر في عظمة الكون، وذكر الحساب وظلمة القبر، والقيام في الليل، وقد اورد ابن بسام قصيدة في صفات المتزهدين مطلعها[1].

خـذ كمـأة الليـل فـي جـام مـن السـهر واسـكب عليـه دمـوع العـين بالسـحر

وامزجـه بـالخوف مزجـاً ناعمـاً ابـداً وقـــم علـــى قـــدم الايـــراد والصـــدر

النثر في عصر ملوك الطوائف والمرابطين

إن النثر الفني وما يسمى بالنثر المنمق قد قطع شوطاً كبيراً في ميدان الادب من حيث تعددت موضوعاته وسعة مساحته ولكنه كان صدى للنثر الادبي في المشرق العربي، وكانت أساليبهم انعكاساً لاساليب ابن المقفع والجاحظ وعبد الحميد الكاتب وعماد الدين الاصبهاني وقاضي الفاضل وغيرهم، وتميز كتاباتهم بجمع بين الشعر والنثر والاجادة فيهما على حد سواء مثل ابن زيدون وابن شهيد وابن حزم وابي حفص بن برد وابن دراج القسطلي وفي عصر بني الاحمر لسان الدين بن الخطيب...على عكس أدباء المشرق الذين تفوقوا في مجال النثر فقط، وتميز نثرهم بما يأتي: -

اشـتداد روح السـخرية والاسـتهزاء كمـا فـي رسـائل ابـن زيـدون ومـنح الموضوعات الصغيرة السطحية شكل الموضوعات الجادة والبطولية مثل المفاضلة بين الاشياء كالورود والازهار والآلات لاظهار الباع والمقدرة الفنية مع غلبة السجع المنمق والمزدوج والبحث عن الالفاظ التي تجري مجرى الحكم والامثال كما في وصف ابن برد للقلم والمداد والكتاب[2] والاكثار من الامثال وحل الشعر والتلويح

---

[1] الذخيرة ١/١ : ٨٥١ .
[2] الذخيرة ٢/١ : ٢٨ .

والاشارات الى الاشخاص والاحداث وكثرة المعارضات لنماذج شرقية واندلسية مع الالتجاء الى الرمز في اخفاء القصد الحقيقي والجمع بين الشعر والنثر، ويمكن تقسيم نثرهم الى: -

١- الخطابة:

استمرت الخطابة على ماكانت عليها من اسباب دينية وحربية وسياسية وادارية وقد تختلط موضوعاتها مع موضوعات الرسائل الديوانية فمالت الى الكتابة دون الالقاء ولنا في عصرنا ابن أبي الخصال صاحب كتاب سراح الادب، الذي عارض ابن نباته في اسلوبه كما في خطبته في الحض على الجهاد و له خطبة في عيد الاضحى يقوله: " الحمد لله الذي لا تعد سوابق نعمه، ولا تحد علائق عصمهِ، ولا ترد بوائق نقمه، الذي فضح البرية عدلهُ ووسعتهم رحمته وفضله، قدّر أرزاقهم وأعمارهم، وأحصى أنفاسهم وكتب اثارهم، ووكل بهم ليلهم ونهارهم، فكل يتحرى مطالعهُ إلى أنْ يبلغ منتهاها، ويتقرى مضاجعه حتى يبيت بأقصاها، من رضي حتمه فمن السعداء، ومن سخط حكمه فليمدد بسبب الى السماء، أحمده حمدَ مؤمنٍ بلقائه مؤمن بدوامه وبقائه.. " وهي مليئة بذكر تفاهات الدنيا والتذكير بالموت.

وفي الحث على الجهاد قال: " ألا تستوحشون لتباريح العصر، وركود ريح النصر، وتداعي أمم الكفر، واجفالنا عن مقاومتهم إجفال العفر، ألا نقلع عن الذنوب التي فتت في أعضادنا، وقضت باهتضامنا واضطهادنا ؟.... " [١]

٢- الرسائل الديوانية:

وهي ما تسمى بالمراسيم والقرارات من اعلان الحرب ومعاهدات السلام والرسائل الدبلوماسية والادارية الرسمية، وقد اعتنى عبد الرحمن الداخل منذ عهد مبكر بديوان الرسائل، ويعد عبد الرحمن الاوسط مؤسس الحضارة الاندلسية ونظمها الادارية التي استقرت منذ عهده واتخذ مجلس الوزراء وقسم شؤون الدولة الى القضاء والمالية والحرب واقتضى ذلك تعدد الكتاب، وفي عصر امراء الطوائف

[١] تاريخ الادب الاندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين : ٢٨٦ ، احسان عباس .

اصبح التنافس السياسي الحاد بينهم على استقطاب الكتاب، وبرز عدد كبير منهم[1] مثل احمد بن عباس كاتب زهير امير المرية ومحمد بن احمد البزلياني كاتب حبوس صاحب غرناطة ومحمد بن الجن كاتب المتوكل بن الافطس امير بطليوس الذي كتب له رسالة الى يوسف بن تاشفين امير المرابطين بمراكش يستصرخه لنجدة الاندلس ضد الفونسو السادس ملك قشتالة وفيها يقول: "... لما كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الاسلام اعزُّ ناصر وعلى غزوك الشرك اقدرُ قادر، وجب أنْ تستدعى لما اعضلَ من الداء، وتستغاث لما احاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيفةُ بها – اهلكهم الله – عند افراط تسلطها واعتدائها وشدّة كَلَبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال وتُستنزل بالاموال... " [2] وهي رسالة استصراخ، وقد سجلت الرسائل الديوانية الاحوال السياسة وطبيعة المشكلات التي تعترضهم والاساليب المتبعة في معالجة مشاكلهم، وهي رسائل تسير في ركاب قرينتها المشرقية من التعقيد والسجع والجناس والتصنع وهي وليدة مدرسة القاضي الفاضل واسلوبه[3].

٣- الرسائل الاخوية او الشخصية:

وهي لا تختلف عن الرسائل الديوانية في محاكاة رسائل مشرقية، وهي رسائل يعبر كتابها عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة وتعزية وسخرية، منها رسالة برفض ود احد الحكام بعد فقدان سلطته وهو تقليد لرسالة بديع الزمان الهمذاني في الموضوع نفسه[4].... ولابن شُهيد (٤٢٦هـ) طائفة كبيرة من الرسائل الشخصية وفيها اطناب[5] ولابن برد

---

[1] للتفاصيل نفسه : ٣٩٤ .
[2] الذخيرة ٢/٢ : ٣٥٣ ، عصر الدولة والامارات : ٣٩٥ .
[3] للمزيد عن الرسائل الديوانية وكتابها ينظر : عصر الدول والامارات : ٣٩٢-٤٢٢ .
[4] الذخيرة ١/١ : ١١٧ ، ولتفصيل ذلك ينظر : الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه : ٥٨٣-٥٩٠ .
[5] ينظر الذخيرة ١/١ : ٢٠٧ .

الاصغر كاتب معن ابن صمادح حاكم المرية مجموعة من الرسائل في العتاب والاستزارة ورسالة في ذم صديق، كما ان له رسالة في تفضل الورد بين الزهور [١] ولابن خفاجة رسائل في التهادي والعتاب ورسالة في شهيد يتفجع عليه منها [٢].

" قمرُ فضلٍ سارَ الى سراره، ووسطى عقدٍ اخذ في انتثاره وصباح جذل اسرع في انطوائه، ومصباح أمل عُجِّل بانطفائه، فقبحاً لدنيا قصفته أنضرٍ ما كان غضا وكسفته أقمر ما كان حسنا وصار مفقوداً..... "

وورد في صبح الاعشى للقلقشندي[٣] طائفة من الرسائل الشخصية لابي عبد الله بن ابي الخصال الذي يعد من اهم الكتاب في دواوين المرابطين، ورسائله تدور حول شكر وتهنئة بقدوم وتعاز في وزير وبنت واخ وزوجة، كما ان لابن زيدون رسائل منها رسالة شكوى لأحد أصدقائه وفيها طرافة ونعومة وعمد الى السجع والصنعة[٤] كما له رسالتان شهيرتان، الرسالة الجدية والرسالة الهزلية، كتب الاولى عندما كان في السجن يطلب الشفاعة والثانية يسخر من الوزير احمد بن عبدوس غريمه في حب ولاة بنت المستكفي وهي رسالة مسجعة وفيها عبارات منمقة وهي غذية بالاعلام والامثال والوقائع التاريخية والاشعار المقتبسة، وفيها جد وهزل ولاهميتها شرحها جمال الدين بن نباتة المصري في كتاب سماه " سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون والرسالة فيها سخرية لاذعة وفكاهة عذبة ومتأثرة برسالة الجاحظ " التربيع والتدوير " في موضوعه دون اسلوبه لان الجاحظ يميل الى الترسل غير المقيد وابن زيدون يميل الى السجع التام والازدواج متأثراً بطريقة ابن العميد (٣٦٠هـ)، علماً بان هذا النوع من الرسائل السخرية وجد عند كتاب مشرقيين آخرين مثل ابي اسحاق الصابي وبديع الزمان الهمذاني، وكتب الرسالة على لسان ولادة حتى يكون النيل منه اكثر وقعاً، وفيها تشبيهات ذات مفارقات شديدة ومقارنات

---

[١] نفسه ١/١ : ١٢٧ .
[٢] نفسه ١/٣ : ٥٥٧ .
[٣] المجلد ٨، ٩ ، ١٤ .
[٤] الذخيرة ١/١ : ٥٥ .

مضحكة ساخرة بين غريمه ومشهوري العلماء والفقهاء والقصد الذيل منه، و من الرسالة:

" أما بعد ايها المصاب بعقله، المورط بجهلهِ، البيّن سقَطُه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الاعمى من شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، والمتهافتْ تهافت الفَراش للشهاب، فأنّ العُجبَ أكذبَ، ومعرفة المرء نفسه اصوب.... " والرسالة فيها إطالة واطناب في حوالي ١٢٥ سطراً، فيها صناعة لفظية معتمدة على السجع وازدواج العبارة وفيها معلومات تاريخية عربية وفارسية ويونانية وتزدحم بالمعارف العلمية وتمتلئ بالامثال العربية والشواهد الشعرية للمغمورين والمشهورين من الشعراء، وانه لم يأت بيت واحد لاندلسي.

٤- الرسائل الفكرية:

وهي الرسائل التي تتناول موضوعاً فكرياً، في التأمل في الاشياء ومعالجة المشكلات ودراسة موضوع معين مثل رسائل ابن باجة الفلسفية ورسالتي ابن السيد البطليوس " الحدائق " و " الانتصار " ورسائل ابن حزم في الرد على مخالفيه ورسالة ابن ارقم في الرد على ما انتقده ابن سيده، وهي رسائل يغلب المضمون على الناحية البيانية[١].

٥- رسائل وصف الطبيعة:

كانت الطبيعة شاغل الاندلسيين، ولاسيما الادباء منهم، ولكثير منهم رسائل في وصف الطبيعة، وكان ابن خفاجة غالباً ما يتوج قصائده بقطعة نثرية في وصف الطبيعة، ولابي قاسم ابن الجد (ت٥٠٨هـ) رسالة في وصف مطر بعد جدب شديد [٢] يقول:

---

[١] الادب الاندلسي: عصر الطوائف : ٢٨٨ ، احسان عباس .

[٢] الذخيرة ١/٢ : ٢٨٥، ٣٤٧ ، الصلة : ٥١٦ ، المطرب : ١٩٠ ، المعجب : ٢٣٧ ، القلائد : ١٠٩ ، الذيل والتكملة : ٦: ٣٢٦ ، والمغرب : ٣٤١/١ ، الخريدة ٣ : ٣٩٣ ، احكام صنعة الكلام لعبد الغفور الكلاعي : ١٨٥ ، عصر الدول والامارات : ٤٤٢ .

" لما استرابت حياضُ الو هادِ، بعهود العِهاد، وتأهبتْ رياضُ النِّجاد لبرود الحِداد، واكتحلتْ أجفانُ الازهار بأثمِد النقع المثار، وتعطلتْ الانوار من حُلي الدِّيمة المدرار، ارسل الله تعالى بين يَدَيْ رحمته ريحاً بليلةَ الجناحِ سريعة الالقاح، فنظمتْ عقود السَّحاب، نظم السِّخاب، ولم تلبث أنْ أنهتكَ رواقُها، وانبتك وشيكاً نطاقُها، واذبرتْ مدامعُها تبكي بأجفان المشتاق، غداة الفراق، فاستغربت الرياضُ ضحكا ببكائها، واهتزتْ رفاتُ الذباتِ طرَ باً للتغريد مُكّائها، فيا بَردَ موقها على القلوب والاكباد ويا خلوص ربِّها إلى غُلل النفوس الصَّوَاد فكأنما أستعارتْ انفاسَ الأحباب او ترشّفت رُضاباً من الثنايا العِذاب، أو تحملت ماء الوصال او سَرتْ على أنداءِ الأسحارِ ورَيَحانْ الآصالِ، فالحمد لله ذلك انسكَبَ قطْرٌ وانصدعَ فجرٌ وتوقد قبس، وتردَدَ نَفَس "[1] ولابن ابي الخصـــال (ت٥٠٨) رسالة مشابهة في وصف ليلة شديدة البرد[2].

المفـاخرات: فـي التفـاخر بتفضـيل عنصـر أو مكـان علـى آخـر، وظهـرت المفاخرات نتيجة الصراع السياسي بين العرب والمولدين في حقب الامارة والطوائف ومن ثم الصراع بين الاندلس والبر الافريقي في عهدي المرابطين والموحدين، وهي تنـاظر الرسـائل المشـابهة بـين العـرب والمـوالي فـي الشـرق، وقـد نقـل لنـا المقـري التلمساني ثلاث رسائل في تفضيل الاندلس ضمن رسائل فضائل الاندلس واهلها، منها رسالة ابن حزم (٤٥٦ هـ) الذي عمد الى الاسلوب السهل المرسل الخالي من التعقيد اللفظي تارة، والى اسلوب المناطقة في سوق الحجج وسط المقدمات حتى ينتهي الى النتائج المطلوبة في تقديس ارض الاندلس وطنه الذي احبه وتفاخر بمدينته

---

[1] على الطلبة تحليل القطعة ، العهاد : المطر ، إثمد:الكحل ، الذقع : الغبار ، السخاب : القلادة من الازهار ، الرواق : مقدم البيت (الطارمة) ، انبتك : انقطع ، استغرب في الضحك : بالغ فيه ، رفات : حطام ، بقايا ، المكاء : طائر ، ريها : الامتلاء ، الغلل : جمع غلة ، شدة العطش ، الصوادي : العطش ، الرضاب : الريق المرشوف .

[2] الـذخيرة ٢/٣ : ٢٨٦ ، المغـرب ٢: ٦٦ ، القلائـد : ١٧٥ ، الصـلة : ١١٨٧ ، البغيـة : ٢٨٢ ، المطرب : ١٨٧ ، المعجب : ٢٣٧ ، فهرست ابن خير : ٣٨٦ ، الخريدة : ٤٤٩/٢ ، الاحاطة : ٢: ٣٨٨ .

" قرطبة " وفضلها على المدن الاخرى، والرسالة الثانية لاسماعيل بن محمد الشُقندي (ت٦٢٩هـ) في تفضيل الاندلس على البر الافريقي وذكر العلماء والشعراء الذين ظهروا في الاندلس وذكر اشعارهم ومن ثم وصف فيها تسعاً من المدن الاندلسية [١] ورسالة لابن سعيد الاندلسي في ذكر محاسن الاندلس[٢] وفي المقابل هنالك رسالة اوردها ابن بسام في تسع صفحات لاحمد بن غرسيه (جارثيا) الذي كان كاتباً عند مجاهد العامري ذي الاصل الصقلبي في ذم العرب وثلاثة رسائل في الردود عليها وتندرج في الصراع المرير الذي كان بين المولدين من سكان اسبانيا والعرب الفاتحين[٣] .

٧- المناظرات الادبية (المفاضلات):

ونقصد بالمناظرات الادبية في تفضيل شيء على شيء آخر على شكل رسالة يدور الحوار فيها بين شخص ونفسه او بين شخصين مفترضين او حقيقين أو اكثر، حول موضوع معين شعراً ونثراً مع المباهات والتفاخر، وفيها يحاول الكاتب ان يحشد مجموعة من الادلة التي تثبت ان شيئاً انفع او اجدر او احسن او اجمل من الآخر مع المشاركة الوجدانية[٤] وقد يرمز الى شيء لا يتمكن البوح به مباشرة، أو وسيلة لإظهار المقدرة الفنية.

وهي من الفنون الادبية التي عرفها الادب العربي مبكراً مثل المناظرة التي اجراها الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بين صاحب الكلب وصاحب الديك في كتابه " الحيوان " ومناظرات اخرى له مثل المناظرة بين الربيع والخريف وبين الشتاء والصيف وبين الخروف والمعز وبين الشعر والنثر، وللجاحظ كتاب منسوب له بعنوان " المحاسن

---

[١] لقراءة نصوص هذه الرسائل : ينظر : النفح ٤/١٥٤-٢٠٨ وما بعدها ضمن فضائل اهل الاندلس (١٤٦-٤١٣) .

[٢] نفسه والصفحة .

[٣] للمزيد عن تلك الرسالة والردود عليها ينظر : تاريخ الادب الاندلسي ، احسان عباس : ١٧٠-١٧٧ ، عصر الدول والامارات : ٤٧٢-٤٧٩ .

[٤] فن المناظرة في الادب الاندلسي ، د. عمر ابراهيم توفيق ، وقائع المؤثر العلمي الثالث ، الدراسات الانسانية لجامعة صلاح الدين ، مجلة زانكو ، حزيران ، ١٩٩٧ ،

والاضداد " فيه مناظرات عدة يغلب عليها الجانب القصصي في تصوير المعايب والمحاسن من الاخلاق والشمائل، ويرى بعضهم ان هذا الفن لم يعرف في المشرق على الوضع الذي صار اليه في الاندلس [١] ولاسيما في مجال المناظرة بين الزهور، ولابن الرومي (ت٢٨٣هـ) الشاعر العباسي الفضل في اثارة المناظرات بين الزهور المختلفة التي كانت موضع اهتمام بين محبي الادب والطبيعة عندما اعلن تفضيله النرجس على الورد قائلاً [٢]:

وأحسن ما في الوجوه العيون واشبه شيء بها النرجس

وقوله نثراً: " النرجس يشبه الاعين والمضاحك والورد يشبه الخدود والاعين والمضاحك شرف من الخدود وشبيه الاشرف اشرفه من شبيه الادنى.... والورد خجل والنرجس مبتسم وانظر الى ادناها شبهاً بالعيون والنجوم فهو افضل" [٣] ويهاجم الذين يفضلون الورد على النرجس بمثل قوله: [٤]

اين الخدود من العيون نفاسة رياسة لولا القياس الفاسد

والارجح انه اتخذ من الورد والنرجس رمزين يجري المناظرة بينهما، فالورد رمز للسلطة العباسية التي جاءت الى الحكم بالدم والنار والزهور الاخرى رمز عن الاقطاب السياسية الاخرى وتركت تلك القصيدة اثاراً واسعة في الاندلس، وعارضه عدد من الشعراء منهم ابن برد الاصغر وابو عثمان سعيد بن فرج الجياني وابو بكر بن القوطية وسبقهم الرمادي في تفضيل الورد على النرجس [٥] وازدهرت تلك المناظرات في عهد المنصور بن أبي عامر الذي سمى بناته باسماء الزهور وفي عهد ابنه المظفر الذي شجعهم لطرح اشعارهم للغناء بينما قسم منهم توسعوا

---

[١] ملامح التجديد في الشعر الاندلسي خلال القرن الخامس للهجرة : ١٢٨ د. مصطفى احمد السيوفي ، عالم الكتب ، ديوان ابن الرومي : ٦٤٣ : ١٢٣٤ ، تحقيق : حسين نصار ، الاسكندرية بيروت ، ١٩٨٥ .

[٢] نفسه.

[٣] نفسه.

[٤] النفح : ٢ : ١٢٤.

واشاروا بالنرجس والورد على حد سواء او وصفوا باقة الورود بانواعها المختلفة، والف ابو الوليد الحميري (ت ٤٤٠هـ) كتابه " البديع في وصف الربيع " في المفضلة بين الورود المختلفة وفي الفصل الاول فضل البهار على الورود الاخرى وهي اشبه بمناظرة قضائية بين الورود[١] وذهبت ماريا خيسوس[٢] ان ابن برد الاصغر كان يعمل في خدمة مجاهد امير دانية وهو صقلبي من اصول اوربية، وقصده تفضيل مجاهد على ابن جهور ملك قرطبة ذي الاصول العربية، واشتهر ابن برد بهذا الفن وله رسالة في المناظرة بين السيف والقلم ورسالة في تفضيل أهب الشاء على ما يفترش من الوطاء[٣] ولابن حسداى رسالة على لسان النرجس[٤] الذي اعتمد على الحوار بينه وبين احد من خواص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، وذلك ان النرجس كان زاهياً بنفسه شاعراً بحسنه، فمرّ به ظريف من خواص الامير فقطف النرجس وحاوره:

" يا أيها الزهر الفارد، والنوار الشارد، الساحر بحدقه وأجفانه، الباهر بورقه وعقيانه، ما لي ارى قضبك غبراء ذابلة، ومنابتك شعثاء ناحلة... "

ثم قال النرجس.

" فليتَ الرياض تعلم بمكاني فتذبل كمداً، وتذوى حسداً، وتراني وقد أنرتُ في افقك البهيج، وزهرت في روضك الأريج، فازل عني حسدهم بكبتهم، فقد شجاهم تقدمي قبل وقتهم ".

---

[١] نشره هنري بيرس ، الرباط .

[٢] الادب الاندلسي : ٢٣٨ ، ماريا خيسوس روبيرا مرتي ، ترجمة وتقديم اشرف علي دعرور ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩ .

[٣] عصر الدول والامارات : ٤٦٠-٤٦٤ .

النرجس في الاندلس تسمى بالبهار ، لانها الوردة الاولى التي تورق في الربيع والبهار : وتعني الربيع في اللغات الهندو الاوربية ، (الهندية والفارسية والكردية ، والاوردية ...) .

[٤] الذخيرة ١/٣ : ١٥٧ .

يقول احسان عباس " ان ابن حسداي يرمز بالنرجس الى النديم المخلص او الصديق الوفي الذي لا يريد الحاسدون له خيراً في ظل الامير صاحبه "[1].

المناظرات بين الاشياء المتضادة: على نهج الجاحظ كتب ابن برد الاصغر رسالة في المناظرة بين السيف والقلم، اجرى بينهما حواراً في باب التساب والتهاجي والتبكيت وكان يعيش في ظل مجاهد العامري امير دانية والجزر الشرقية، وكان الجند عماد الدولة، والقوة هي التي كانت تحدد مستقبل الامارة في عهد ملوك الطوائف، وكان هدفه اجراء التسوية بين الجند واصحاب القلم بعد ان يذكر ما تشابه من خصالها ومناقبهما وانهما وسيلتان لارتقاء المراتب ولنهج الشرف، منها: -

" فقال القلم: ها الله اكبر، ايها المسائل بدءاً يعقل لسانك، ويُجير جنابك، وبديهة تملأ سمعك، وتضيق ذرعك، خير الاقوال الحق، واحمد السجايا الصدق، والافضل من فضله الله عز وجل في تنزيله مُقسما به لرسوله، فقال: " نون والقلم وما يسطرون " وقال: " أقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم... "..... "

فقال السيف: " عدنا من ذكر الطبيعة الى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة الى وصف الملة لا أُسر ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يحسن، إن عاتقا حمل نجادى لسعيد، وان عضداً باتو سادي لسعيد، وان فتى اتخذني دليله لمهدي، وان امرأ صيرني رسيله لمفدىّ، يشق منه الدجى بمصباح، ويقابل كل باب بمفتاح... " [2].

كما ان هناك مناظرات بين المدن المختلفة والاقاليم، فلابي بحر صفوان التُجيبي (٥٩٨ هـ) رسالة موجهةُ الى أحد أمراء الموحدين تتضمن حواراً ومناظرة بين مدن اندلسية تدعو ذلك الامير للاقامة فيها، تبدأ بمدينة اشبيلية بعد مقدمة طويلة بذكر جمال مرافقها وطيب الاقامة فيها ومن ثم قرطبة فغرناطة فمالطة فمرسية واخيراً بلنسية[3] وهي مشابهة لرسالة ابن احمد الداني التي يتحدث عن قصور

---

[1] الادب الاندلسي ، عصر الطوائف : ٢٩١ .
[2] الذخيرة ١/١ : ٥٤ .
[3] ملامح التجديد في النثر الاندلسي : ١٢٩-١٣٣ .

المعتمد حاكم اشبيلية وتفوقها في الجمال والابهة والترف[1] وقد سبق وان تطرقنا الى رسالة التوابع والزوابع لابي عامر بن شُهيد ومفاضلته بين البرد والنار، ولابي حفص بن الشَهيد (٤٤٠هـ) مقامة يناظر فيها على لسان ديك بين لحم دجاج صغير ولحم ديك هرم [2]

وللقاضي حميد بن عمرو بن محمود البخلي (٥٩٩ هـ) مناظرات بين الشباب والشيخوخة وبين اهل السنة والشيعة وبين الطبيب والمنجم وبين الربيع والخريف وبين الحب والجنون[3] ولابن عبد الغفور الكلاعي (٥٥٠ هـ) مناظرة بين الشعر والنثر مفضلاً النثر مستنداً الى ادلة دينية وانه يعد عيوب الشعر ويخلص الى انه لا ينكر فضائل الشعر لكن سوء استخدامه هو الذي يجعله ينظر اليه هذه النظرة[4].

---

[1] الادب الاندلسي : ٢٤٢ ، ماريا خيسوس .
[2] الذخيرة ١/١ : ٢٤٥ .
[3] النثر الفني : ٢٤٨ ، زكي مبارك .
[4] الذخيرة ١/٣ : ١٩٥ .

٨- الزرزوريات:

رسائل في التندر والفكاهة ولاظهاء القدرة الفذية، ابتدعه ابو الحسين بن السراج الذي خاطب اهل عصره برسالة يشفع لرجل يعرف بالزريزر، وتصوره زرزور حقيقي له ريش ومنقار وفرخ وعش... من خلال الاستعارات، ومن قوله:

"... شخص من الطيور يعرف بالزريزر، اقام لدنيا أيام التحسير وزمان التبلغ بالشكير، فلما وافى ريشه، ونبت بافراخه عشوشه، ازمع عنا قطوعا وعلى ذلك الافق اللدن تدلياً ووقوعا، رجاء أن يلقي في تلك البساتين معمرا وعلى الغصون حباً وثمراً " [١] وعارضه ابو القاسم بن الجد بثلاث رسائل في العتاب والشفاعة، كما عارضه عبد العزيز بن سعيد البطليوسي وابن ابي الخصال وغيره [٢].

٩. رسائل في وصف الرحلات:

ويقسم الى رحلات داخل الاندلس وخارجهُ، ومن نوع الاول ما كتبه محمد بن مسلم الداني سماها "طي المراحل "[٣] يصور انتقاله بين المدن الاندلسية سفيراً ونزوله عند امراء الطوائف وما كانوا يرفلون من الترف " ويتوضأون بطاس من التبر وابارِيق رصعتْ بالدر " ووقف عند جامع قرطبة، فصور عظمة بنيانه وزخارفه ووصف ما لحق بمدينة قرطبة من الخراب في عصر الفتنة، وكانت الرسالة ادبية تغلب عليها الناحية البيانية لذلك لم تصور حياة الناس وعلاقاتهم

الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومما قاله في وصف قصور بني امية بعد خرابها: - "... ووقفت بالقصر المرواني، وطفت على المصنع القحطاني، وانتبذت الى المتنزه العبد الرحماني، فاذا الثلاث الاثافي واليار البلاقع، فأخذت بالشبه في ديار ثمود، اسكب الدموع وامجد المعبود فقيل ها هنا كانت قصورهم، وهنالك هي قبورهم، قد صارت مفاصلهم تراباً ومساكنهم يباباً... "

---

[١] الذخيرة ١/١ : ١٧٩ .

[٢] للتفاصيل ينظر : الادب الاندلسي ، عصر ملوك الطوائف والمرابطين ، ٢٩٥-٢٩٩ ونصوص الرسالة في الذخيرة .

[٣] الذخيرة ١/٣ : ١٤١ ، المغرب ٢ : ٤٠٥ .

اما الرحلات الخارجية فقد غلب عليها الجانب السردي والوصفي وسموا كتابها " بالبلدانيين " وكتاباتهم مزيج بين الجغرافية والتاريخ والاجتماع واسبابها دينية او تجارية او علمية او دبلوماسية ويتركز الجانب الادبي فيها الى الحنين الى الاوطان او الشعور بالغربة، اضافة الى الناحية البيانية التي تتسم كتابات بعضهم، وبرزت تلك الكتابات منذ القرن السادس للهجرة في الاندلس، ومن اهمهم ابو حامد الغرناطي (٤٧٤-٥٦٤هـ) وله كتابان " تحبة الالبال ونخبة الاعجاب " و " تحفة الكبار في أسفار البحار " [١].

وقد شغف بالسفر وتجول في افريقيا وزار صقلية ومصر والشام والعراق ونواحي بحر قزوين وصعد الى اقصى الشمال الى روسيا اضافة الى بلاد الصقالبة والبلغار على ضفاف نهر الفولكا، وهو يكثر من ذكر الخوارق والعجائب الخرافية ومن وصفه لبلاد روسيا يقول: " الطريق في ارض لايفارقها الثلج ابداً، ويتخذ الناس لارجلهم ألواحاً ينحتونها، طول كل لوح باعٌ وعرضهُ شبرٌ ومقدَّم ذلك اللوح ومؤخرّه مرتفعات عن ارض، وفي وسط موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه ثقب، وشدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ويقرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان في رجليه بشندال[٢] طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمنى عصا بطوله، وفي اسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الانسان خفيفة، ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاّح في السفينة فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يكن احداً

يمشي هنالك البته واي حيوان يمشي عليه يغوص في ذلك الثلج إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والارنب فانها تمشي عليها بخفة وسرعة " [٣] ويعود

---

[١] تاريخ الادب الجغرافي العربي :٢٩٥ كراتشكوفسكي ترجمة :صلاح الدين عثمان ، طبع لجنة التأليف ، ١٩٦٥ ، عصر الدول والامارات : ٥٢٨ .

[٢] شندال : حبل .

[٣] عصر الدول الامارات : ٥٢٨-٥٢٩ .

معظم الرحالين الاخرين الى عصري الموحدين وبني الاحمر وأشهرهم محمد بن احمد بن جبير البلنسي (٥٣٩-٦١٤ هـ) الذي زار الاسكندرية بحراً ومن ثم القاهرة وجدة ومكة والمدينة وبعدها توجه الى الكوفة وبغداد والموصل والشام وكانت الحملة الصليبية على اشدها وركب البحر من عكا على سفينة مسيحية الى الاندلس عبر صقلية ووصل الاندلس سنة ٥٨١هـ وهو في كل البلدان يمكث بعض الوقت ويدون مشاهداته فيها من مساجد ومدارس وغرائب واثار على شكل مذكرات يومية موثقة باليوم والتاريخ وقد نشر بعنوان "رحلة ابن جبير " ومكتوبة بأسلوب مرسل فيها السهولة والسلاسة والعذوبة ويراعي الجانب البياني على عكس القطعة السابقة، كما يتبين من قوله في وصف الرحلة بحراً بعد خروجه من سردينيا "وفي ليلة الاربعاء من اولها عصف علينا ريح هالَ لها البحرُ، وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة، كأنه شآبيب سهام، فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السايرة فبقينا على تلك الحالة الليل كله، واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار بما هو أشد هولا واعظم كربا، وزاد البحر اهتياجا، وأزيدت الافاق سوادا، واستشرت الريح عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع، فلجيء الى استعمال الشروع الصغار، فاخذت الريح احدها ومزقته وكسرت الخشبة التي تربط الشرع فيها... فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت ايدي المسلمين بالدعاء الى الله عز وجل، وأقمنا على تلك الحالة النهار كله، فلما جنّ الليل، فترت الحال بعض فتور، وسرنا في هذه الحالة كلها بريح السوارى سيراً سريعاً.. فما اسفر الصبح نشر الله رحمته واقشعت السحاب وطاب الهواء واضاءت الشمس، واخذ في السكون البحر، فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس، والحمد لله الذي أرانا عظيم قدرته، وتلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته، حمداً يكون كفاء لمنته ونعمته... " [1] ولا يكمن الجانب الادبي في اسلوبه فقط وانما فيما التقى بهم من

[1] ادب الرحلات : ٢٣٢ ، د. حسين محمد فهيم ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٣٨ ، الكويت ، ١٩٨٩ .

العلماء والادباء وما شعر به من الحنين الى وطنه وما عانه من الغربة، ويحكى أنه كان في دمشق، قطع احد الاغصان الصغيرة من شجرة كبيرة وانشد قائلاً [1]:

لا تغتـــــرب عـــــن وطـــــن واحـــــذر تصـــــاريف النـــــوى

امـــــا تـــــرى الغصـــــن إذا مـــــا فـــــارق الاصـــــل ذوى

ومن الرحالة الآخرين: القاضي ابو البقاء البلوى ورحلته التي بدأها سنة ٧٣٠للهجرة بعنوان: تاج المفرق في تحلية علماء افريقيا والمشرق "[2] وابن الحاج النميري (٧٧٤هـ) وكان شاعراً مجيداً في الشعر الغنائي والتعليمي، ورحلته باسم " فيض العباب وإحالة قداح الاداب في الحركة الى قسطنطينية والزاب "[3] ولابن الخطيب (٧٧٦هـ) رحلات عدة منها رحلته الخارجية مع اميره الحجاج الاول الذي تفقد بعض ثغوره الشرقية وسماها " خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف " ورحلته الثانية التي تشبه مقامة الذي زار اربعاً وثلاثين مدينة من مدن امارة غرناطة وبعض مدن شمال افريقيا والمقامة مسجوعة وتصور ما في هذه المدن من العمران والنشاط الثقافي والاجتماعي مع ذكر محاسن كل مدينة ومساوئها وعنوانها " معيار الاختيار في ذكر الاحوال والديار "[4] ورحلة ثالثة الى شمال افريقيا بعنوان " نفاضة الجراب في غُلالة الاغتراب "[5] وكانت اربعة اجزاء سقط منها ثلاثة وبقي الجزء الثاني، وفيها يزور اغمات ويقف أمام قبر المعتمد بن عباد ويحييه بقصيدة ثم يزور بعض مدن الساحل ويذكر ما في تلك المدن من المساجد والمكتبات والمدارس.. واخيراً الرحالة علي بن محمد القرشي البسطي المعروف بالقلصادي (٨١٥-٨٩١ هـ) الذي له رحلة الى الحجاز وسماها " تمهيد الطالب ومنتهى الراغب الى اعلى المنازل

---

[1] نفسه : ١٠١ .
[2] الاحاطة ١ : ٥٠٠ ، الكتيبة الكامنة : ١٣٤ ، لسان الدين ابن الخطيب .
[3] تحقيق : د. محمد بن شقرون ، الرباط ، د. ت .
[4] تحقيق : محمد كمال شبانه ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
[5] تحقيق ونشر : د. مختار العبادي ، القاهرة .

والمناقب " [1] وهو غير الشاعر البسطي محمد بن عبد الكريم الذي نشره د. محمد ابن شريفة بعنوان "البسطي " آخر شعراء الاندلس[2].

١٠- المقامات:

ابتكره في المشرق العربي بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨-٣٩٨هـ) وهي اقاصيص قصيرة تصور الادباء المتسولين المعروفين في زمانهم بالساسانيين المحترفين للكدية او الشحاذة الادبية وراويه عيسى ابن هشام رجل وهمي وبطله ابو الفتح الاسكندراني واخباره كلها تدور على الكدية والخداع والاحتيال والتمويه في الحصول على الرزق والتخلص من مأزق الحياة بطرق ملتوية وهدف الكاتب اظهار مقدرته اللغوية والادبية باساليب البيان والبديع واستعمال الالفاظ الغريبة والقصص الطريفة والجمع بين الشعر والنثر، وقد سبق ان اشرنا الى تأثر ابي عامر ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع بالمقامة الابليسة للهمذاني في موضوعه وفي وصفه للحلواء ووصفه الرائع للماء والثعلب والبرغوث.... وقد سار كتاب المقامات في الاندلس على نهجين:

الأول: مقامات تجمع بين الرسائل والمقامة لا تقوم على الكدية والشحاذة الادبية وانما تصف موضوعاً او موضوعات، وتسير على اسلوب المقامة في السجع والالفاظ الغريبة ووصف مشاهد وغالباً تخلو من العقدة، وقد تكون موضوعاتها قصصية او نقدية ادبية او هجائية او مدحية او غزلية وتشمل هذا النوع معظم مقامات عصر ملوك الطوائف، ومقامات اخرى في العصور اللاحقة مثل مقامات ابن الخطيب التي تدور حول وصف الرحلات ووصف البلدان وفي معاملة الرعية ومقامات النباهي في المناظرة بين الكرمة والنخلة، واورد ابن بسام في ذخيرته ثلاث مقامات، مقامة لابي حفص عمر بن الشهيد وهو من شعراء المعتصم بن صمادح امير المرية في عهد امراء الطوائف ومقامته اشبه بوصف رحلة في عدة فصول

---

[1] تحقيق ونشر : محمد ابو الاجفان ، تونس .
[2] دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥ .

اورد ابن بسام فصولا منها، يتحدث في بدايتها عن صنعة الكتابة وما وصلت اليها في تلك الحقبة مقدمة للدخول في وصف رحلة له الى منزل بدوى ذي هيئة ومنزل رث ويحاول صاحبه ان يمسك ديكا هرما اغرى البدوى صبيانه بالجري للقبض عليه، ويهرب ويقف على اعلى مسجد ويصفق بجناحيه اثنين ويصرخ صرختين وقد حان وقت الظهيرة فوقف خطيباً قائلاً:

" ايها السادة الملوك فيكم مُتع بالشباب، والاشيبُ نوَّر شيبه مع الكواعب والاتراب، وقد صحبتكم مدة، وسبَّحتُ الله تعالى على رؤوسكم مراراً عدة أوقظكم بالاسحار، وأُؤذن بالليل والنهار، وقد احسنت لدجاجكم سفاداً، وربيُت لكم من الفواريج أعداداً، فالآن حين بلي في خدمتكم تاجي، أنعي الى دجاجي وتُندحي الشَّفرةٌ على اوداجي، وحين ادركني الشيخ يُمزّق لحمي ويُطبخ ؟ ياللكرام، من ذل هذا المقام، وجعلت دموعه تسفحٌ من دمه والخزف يُطبق على فمه، ثم غُشي عليه، فأصبحت البداوةٌ من كل ناحية اليه، يضربون وجهه بالماء، ويُخلصون له في الدعاء ثم افاق من غشيته وانشد:

عَـــــلامَ يُقـــــتلَ شـــــيخٌ مِـــن كـــل ذنـــبٍ بـــريٌّ

مُحـــــــقٌّ مُتَجـــــــرٌ مُوَحـــــــدٌ ســـــــنيٌّ

هـــل نـــصَّ هـــذا كتـــابٌ أو قـــال هـــذا نبـــيّ

لا ذنـــب لـــي غيـــر أنـــي مُـــوَّذنُ بَـــدوي

فرقت له انفس القوم واقبلوا على صاحب المنزل باللوم، " وفهمهم الموضوع وان له ضيفين ومن باب الكرم ان يقدم لهما طعاماً وتمثل شعراً

ومـن شـيمتي مهمـا تـزيّن منزلـي بضـيفٍ أن أقريـه باحسـن مـا عنـدي

لـو أن دمـي خمـرٌ لـرويتهُ بـه ولـو صـلحت كبـدي شـويت لـه كبـدي

بـذلك اوصـاني أبـي مـذ عقلتـهُ وقـد كـان اوصـاهُ بـذا قبلـه جـدى

فقال الديك: لا أكذبُ، الحقُ طريقٌ مستبين، واتباعه مروءةٌ ودين، اما أنه لعلى خُلق عظيم، كريم ابن كريم، غير أنه لؤم في أمري وأفرط، وغلط ما شاء ان يغلط، أما علم أن هرمات الديوك، ليست من مطاعم الملوك، وانها بالادوية أشبه منها بالاغذية ؟؟ وأُقسمُ لو اتخذ بُرمةٌ من فؤاد مهجور، ووضعني من مثله على تنور، لاقضى بي حاجة ولا عدم مني نيوءاً وفجاجة، وإن له في بني ما يجده فيَّ، من طيب المشمِّ ولذة المطعمِ... " [1] ويستمر في المقارنة بين لحم الديك الهرم ولحم الفروج، وبعدها في فصل آخر يصف نزوله مع صحبه في قرية مسيحية فنزلوا فيها وشربوا من الدنان ما سكرهم ثم شدوا الجياد، فمروا بكنيسة مهدمة يصفها ويبكي على اطلالها ثم يصادفهم شاب فارس كان نصرانيا واسلم، والمقامة برحلة متعددة المشاهد.

كما أورد مقامة لابي الوليد محمد عبد العزيز المعلم[2] احد وزراء المعتضد أمير اشبيلية وهي أشبه برسالة مدحية، والمقامة الثالثة لابي محمد بن مالك القرطبي[3]، وهي رسالة مدحية في أمير المرية المعتصم بن صمادح يصف جيشه وحروبه [4] علماً بان للمقامات تأثيرا كبيرا في الأدب الاسباني، اذ نشأ على غرارها فن قصصي في وصف حياة المتسولين سميت بالأقاصيص البيكارسية معتمداً على الحيل والألاعيب في كسب رزقهم، كما تتبين لاحقاً في اثر الحضارة الإسلامية في الأدب الغربي.

الثاني: مقامات سارت على نهج الحريري (٤٤٦-٥١٦هـ) الذي وضع خمسين مقامة مقتفياً اثار الهمذاني، وقد عني بها العلماء في المشرق والاندلس بشرحها وترجمت الى الفرنسية والانكليزية والالمانية والتركية والفارسية وغيرها

---

[1] الذخيرة ٤٢٣/١ ، تحقيق : سالم البدري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ .
[2] نفسه ١١٢/٢ ، الجذوة : ٦٥ ، البغية : ٩٤ ، المغرب ١: ١١٢ .
[3] الذخيرة ١: ٧٣٩ ،القلائد : ١٧٠ .
[4] لمعرفة المزيد من المقامات في عصر ملوك الطوائف ينظر : تاريخ الادب الاندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣٠٣-٣٢٦ .

وراويه الحارث بن همام وهو رجل رحالة ابي النفس بعيد عن مسالك اللصوصية وبطله ابو زيد السروجي وهو من اهل الكدية الذين احترفوا التسول وكانت وسيلته فصاحة لسانه وسحر بيانه[1].

وانتشرت مقاماته في الاندلس وعارضه كتاب نهجوا على منواله وابرزهم ابو القاسم السرقسطي (٥٣٨ هـ) الذي الف سلسة من المقامات بلغ عددها خمسين مقامة سميت بالمقامات اللزومية، واتخذ بطلا لها من ابطال الشحاذة الادبية هو الشيخ ابو حبيب وراويه هو السائب بن تمام محاذية لمنهج الحريري، وقد بنيت مقاماته على السجع وتعدى في بعضها في لزوم ما يلزم الى اكثر من حرفين، وتدور مقاماته حول بلدان كثيرة عدا المقامة الثلاثين التى خصها بالحديث عن ادبه الشعراء من العصر الجاهلي الى العباسي بينما تناول في المقامة الخمسين حواراً حول الـــنظم والشعر والمفاضلة بينهما[2] وجعلها معرضاً للبراعة الاسلوبية وموضوعاته تدور في مدح الشي وذمه وفي مقامة اخرى يصف الدينار وثالثة يصف حال العاشق واربعة في وصف سرب من الحسان وخامسة في مناجاة الطلول وسادسة في تصوير القاضي الجائر وسابعة في وصف الفرس... ووصف للمغامرات التي تغلب عليها الخرافة مثل مغامرات السندباد والبحتري، وقد تناول العيوب الاجتماعية، ففي المقامة التاسعة والاربعين يصور بطله منتحلاً مهنة الطب والعرافة ويداوي فتى ويـقول مخاطباً الجن " يا مارد سهمك صارد، يا مريد مذا تريد، ما اطغاك ما اعصاك، ما أبعدك عن الخير واقصاك، اخرج ياواغل، فانك شاغل، ابعد ياخاتل فانك قاتل " ثم ينادي على الناس " ايها الناس عندي في هذا الشأن سراير، وخبايا من الحكمة وضراير، اخذتها عن العلماء ولقنتها من الحكماء، اين من شكا من هذه الاعراض ؟ اين من رمي من هذه الاعراض ؟ اين من لحقته آفة ؟ اين من برحت به علاقة او شأفة ؟.... أين من

---

[1] تاريخ الادب العربي : ٧٤٠ ، حنا فاخوري ، بيروت ، لبنان .

[2] للمزيد عنه ومقاماته ينظر : عصر الدول والطوائف : ٥٢٢ ، تاريخ الاندلس ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣١٧-٣٢٤ .

خامرته الاشواق والوساوس ؟ ولعبت به الاجراس والوساوس، اين من سحره ساحر ؟ او دحره داحر ؟ اين من لقعته عين او رهقته دين ؟ عليّ الضمان وانا الزعيم وله النعيم... "

١٠- الكتب الادبية:

امتاز القرن الخامس للهجرة بتقدم فكري وحضاري في مختلف العلوم، وان الكتب التي الفت في تلك الحقبة كثيرة ويرجع ذلك الى جهود علماء الاندلس وحكامها في العصور السابقة اضافة الى التنافس السياسي بين عواصم امراء الطوائف، والفت في العلوم الدينية من الحديث والسنة النبوية والفقه واصوله والعلوم اللسانية والعلوم التطبيقية من الطب والحساب والهندسة والجبر والزراعة[١] وفي مجال الادب اشار ابن سعيد في مقام المنافرة بين الاندلس والمغرب[٢] الى كتاب " سراج الادب لابي عبد الله بن ابي الخصال " وزهرة الاداب للحصري وجهود السيد البطليوس في كتابيه " الاقتضاب وشرح سقط الزند " وشـــروح الاعلم الشنتمري لشعر المتنبي، ونشير الى كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام (٥٤٢ هـ) وكتابي الفتح بن خاقان (٥٢٩هـ) قلائد العقبان ومطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس، وكتاب الصلة لابن بشكوال (٥٧٨ هـ) والحلة السيراء لابن الابار البلنسي وجذوة المقتبس لابي عبد الله الحميدي (٤٨٨هـ) والبديع في وصف الربيع لأبي الوليد الحميري (٤٤٠هـ) وكتاب " مذكرات الامير عبد الله: لعبد الله بن بلقين آخر حكام بني زيري في غرناطة[٣] وهو كتاب في تاريخ تلك الدولة (٤١٠-٤٨٤ هـ) من خلال مذكرات اميرها، وكتاب احكام صنعة الكلام لابي القاسم بن عبد الغفور الكلاعي [٤] يتحدث عن الترجيح بين المنظوم والمنثور، وفصل في الكتابة وآدابها، اذ يتناول رتبة الخط وتسوية البطاقة والعنوان والاستفتاح والصلاة على النبي وصدر الرسائل

---

[١] للمزيد ينظر : صورة المجتمع الاندلسي : ٢٤٠-٢٥٦ .
[٢] النفح ٣ : ١٨٤
[٣] مذكرات الامير عبد الله بن بلقين ، تحقيق برفسنال ، دار المعارف ، القاهرة .
[٤] تحقيق : محمد رضوان الداية ، ط ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ .

والدعاء و هذا يشبه كيفية كتابة البحث، و في الباب الثاني تناول انماط الترسيل، العاطل والحالي والمصنوع والمرصع وغيرها ثم يفرد فصولا عن الخطبة والمقامات مختتماً كتابه على قوانين الكتابة وآدابها، وكتاب " بهجة المجالس " لابي عمر بن عبد البر التي تبلغ فصوله مائة وثلاثة وعشرين فصلاً تدور حول الاساليب الحسنة والخطابة والمحادثات والبلاغة والحياة والحظ والثروة والجود والربا والرحلات والزيارات والضيوف والسلطان و هو شبيه بكتاب العقد الفريد[1] وكتاب " ريحان الالباب " لابن المواعيني و هو يتناول العلوم والادب والتاريخ و في الادب يتناول التشبيهات والتعبيرات الغامضة والاقوال والعبارات الساخرة والبلاغة والفصاحة واللطافة في الاسلوب و فن الشعر وقواعد النثر[2] و سبق وان تطرقنا الى كتاب " طوق الحمامة " لابن حزم.

[1] الادب الاندلسي : ٢٢٢ ، ماريا خيسوس .
[2] مخطوطة في اكاديمية التاريخ الملكية في مدريد ، نفسه : ٢٣٣ .